

منقیات (۹)



شیخ عابد مسر غلوم

الشيخ علي حسن غلوم علي

منتقيات

٩.

خطب الجمعة التي أُلقيت من على منبر
مسجد سيد هاشم بهبهاني في الكويت
في الفترة ما بين

٣ ربيع الثاني ١٤٣٦ هـ - ٢٣ يناير ٢٠١٥ م
إلى

١٢ ربيع الثاني ١٤٣٧ هـ - ٢٢ يناير ٢٠١٦ م

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى

١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م

من مطبوعات

مسجد سيد هاشم بهبهاني - الكويت

تلفون : ٢٥٤٢٧٦٦٧ - ٢٥٤٢٧٩٩٧

فاكس : ٢٥٤٢٨٥٥٨

Email: alwalaa@alwalaa.com



مسجد سيد هاشم بهبهاني - الكويت

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

٧	المقدمة
١٣	١- الإنفاق في سبيل الله
١٨	٢- لا تطلقوا الأحكام على الآخرين
٢٣	٣- عداوة وتعايش
٢٧	٤- إصرر الأوهام
٣٢	٥- كتاب الله أم كتاب إلهي ؟
٣٧	٦- العقل والإيمان
٤٢	٧- حرية الفكر
٤٧	٨- نظام الإرث في الإسلام
٥٢	٩- المرأة في مسيرة النبوات
٥٦	١٠- الأمة الوسط
٦٣	١١- اليمن : التاريخ والحاضر
٦٧	١٢- شبابنا في مواجهة صراع النماذج
٧٢	١٣- شفاعة المسيح
٧٦	١٤- لكل قوم هاد
٨٢	١٥- الإمام علي وسنة الصراع
٨٧	١٦- من سيرة الإمام الكاظم
٩٣	١٧- تقسيم دول المنطقة
٩٨	١٨- رحمة النبي وآله
١٠٤	١٩- مناهج التكفير
١١٠	٢٠- الإسلام الليبرالي
١١٦	٢١- هل انتفت الحاجة إلى العبادة ؟
١٢١	٢٢- التوبة المرفوضة
١٢٦	٢٣- حق الأمن الفردي

محتويات الكتاب

٢٤-	لا تبيعوا خلفيات التفجير	١٣١
٢٥-	يوم القدس وروحانية رمضان	١٣٥
٢٦-	هل للإنسان قيمة في الإسلام ؟	١٣٨
٢٧-	خطر الشائعات والإشاعات	١٤٢
٢٨-	خذوا زينتكم	١٤٧
٢٩-	العدوان على المسجد الأقصى	١٥٢
٣٠-	معادن الرجال	١٥٥
٣١-	دعوة إمام الأزهر الشريف	١٥٩
٣٢-	خلية العبدلي والتخوين الطائفي	١٦٦
٣٣-	العامل الغيبي لتحقيق الوحدة	١٧٤
٣٤-	قشتان لا تنجيان	١٧٩
٣٥-	الذكاء العاطفي	١٨٦
٣٦-	ثورة التوابين	١٩١
٣٧-	لماذا خلق الله الشر ؟	١٩٦
٣٨-	نحو فقه يواكب التطورات	٢٠١
٣٩-	حق الإنسان في الحياة	٢٠٦
٤٠-	عندما يفتي الجاهلاء	٢١١
٤١-	طلاق أبناء الطلاق	٢١٧
٤٢-	عبادة الشخصيات	٢٢٢
٤٣-	محاذير الاكتفاء بالتعظيم	٢٢٦
٤٤-	الاتزان النفسي في شخصية النبي	٢٣١
٤٥-	لماذا نضيع البوصلة ؟	٢٣٧
٤٦-	الصنمية	٢٤٣
٤٧-	مجلس مخاصمة القضاء	٢٤٨

المقدمة

هذا العدد التاسع من «منتقيات» لسماحة الشيخ علي حسن غلوم، والذي جمعت مقالاته من خلال خطب صلاة الجمعة، وتجسدت فيها كثير من المفاهيم الإسلامية والإنسانية الواعية لخط أهل البيت (عليهم السلام)، حيث تنوعت هذه المفاهيم العلمية والعملية من خلال التجارب الحياتية والمشكلات التي تمر بها المجتمعات الإسلامية عامة والمجتمع الكويتي خاصة، حيث أننا في مرحلة أحوج ما نكون فيها إلى مثل هذه المفاهيم الواعية والتي تجسد الإسلام الحقيقي البعيد عن الأوهام والخرافات والتي - مع الأسف - انتشرت أخيراً وبقوة وكأن في البين يداً خبيثة وملوثة تريد إشغال المسلمين بالفتن والخلافات الداخلية والخارجية إضاف إلى نشر الفكر المنحرف والضال وبذر الشقاق وإشغال المجتمع بالشعوذة والسحر، وذلك بتحريف تلك المفاهيم.

وقد اتبع الشيخ (حفظه الله ورعاه) أسلوب الناقد والراصد لكل وافد ودخيل على الإسلام ومحذراً ومنبهاً إلى آثاره ومخاطره وعواقبه. لقد كان واعياً دائماً ومترصداً للبدع والخرافات والعادات الشاذة الغريبة والأفكار التي تقدم باسم الحداثة والحرية وهي تخلط السم بالعسل. وهو بذلك يدعونا أن نرصد تلك الظواهر السلبية والخطيرة من كل موقع لمواجهة التحديات الفكرية والاجتماعية والدينية والتربوية والسياسية والأمنية، ولم يكتف في

النظر إلى المشاكل من زوايتها الدينية البحتة فقط، بل ألقى عليها نظرة شاملة ثم شخص الداء وأعطى الدواء الذي يعالج الخلل وفي جميع المجالات. وكخط عام، فهو لا يميل إلى قضايا الترف الفكري وإنما يمد بصره إلى واقع الحياة، يتتبع مشاكلها، ويدخل في مناقشاتها ومعالجتها، وذلك من خلال كتاب الله الكريم وأحاديث النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله)، وأهل بيته الأطهار (عليهم السلام)، وتجارب العلماء والباحثين.

وسوف يلاحظ القارئ الكريم أن موضوعات «منتقيات» مشدودة إلى هموم الراهن والمستقبل، فهي أطروحات متعددة بخلفية قرآنية أصيلة ونظرة تجديدية، حيث تتضمن وضوح الرؤية والمجاهرة في إعلان الحق وطرح مفاهيم الإسلام بصورة مواكبة للتحديات، وملبية لمطالبات العصر.

وما يزيد في أهمية «منتقيات» أنها تمثل ما يعانيه الناس من مشكلات وهموم على اختلاف مستوياتهم، فهدف «منتقيات» تثقيف العام، وإيصال الفكرة إلى أكبر عدد من الناس ولجميع المستويات.

إن تلبية احتياجات الجمهور تحتاج إلى لياقات وقدرة واسعة على التنقل بين آفاق ثقافية متنوعة الاتجاهات والاختصاصات، حيث يفرض علينا وبشكل ملح أن يصل الفكر الإسلامي الأصيل إلى كل المستويات والطبقات الاجتماعية، وأن يسمع الجميع رأي الإسلام في كل ما يثار من إشكالات ومستجدات في الواقع.

وهكذا كانت منهجية أهل البيت (عليهم السلام) في التوعية والتثقيف التي سار عليها أعلام مدرستهم في المقاطع التاريخية المختلفة.

إن «منتقيات» تدعوننا أن ندخل القرآن الكريم والنبى العظيم والأئمة الطاهرين في حياتنا، وأن تتحول إلى دعوة حركية، أي أن نحياهم، لا أن نحيا ذكراهم فقط، فهم الذين قالوا: (أحبونا حب الإسلام)، فهم موجودون معنا بفكرهم ومنهجهم، وهذه هي دعوتهم أيضاً: (شيعتنا من اتقى الله وأطاعه).

وهكذا نجد أن الشيخ (حفظه الله ورعاه) تبنى تصحيح الكثير من المفاهيم الدارجة والسائدة بين الناس في أعرافهم وتقاليدهم وعاداتهم وقيمهم مما يتناقض مع الخط الإسلامي الأصيل، ثم عرضها على كتاب الله وأحاديث وسيرة النبي وأهل بيته (عليهم السلام أجمعين)، ليكشف الصالح من الطالح، والأصيل من الدخيل. وعلى الرغم من أن بعض المفاهيم والمشكلات التي طرحها سماحة الشيخ تندرج تحت أكثر من عنوان، أي أنها قد تكون فكرية أو اجتماعية أو سياسية أو تربوية أو أمنية أو نفسية أو تاريخية أو دينية.

وبهذا يكون كتاب «منتقيات» قد صدر في الوقت المناسب والخرج ليوحي الناس بهذا الفكر الصافي للإسلام، ومن خلال منهج أهل البيت (عليهم السلام) الذي يجمع ولا يفرق، وينير الطريق للمؤمنين والمسلمين، بل للإنسانية جمعاء. والله من وراء القصد...

أسعد محمد خريط

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإنفاق في سبيل الله

١



﴿وَلَا تَطْغُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ، هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بَنَمِيمٍ، مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ، عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ، أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ، إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ «القلم: ١٥-١٠».

في هذه الآيات المكية تصوير لنموذج من نماذج مشركي مكة الذين وقفوا في وجه دعوة النبي (صلى الله عليه وآله). ومن صفات هذا النموذج وفرة المال: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ ومع هذا فهو كثير المنع لفعل الخير من قبيل الإنفاق على المحتاجين: ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾.

• صورة المجتمع المكي:

وإذا كانت أسباب النزول تتحدث عن أن الآيات تصف شخصاً معيناً، كالوليد بن المغيرة أو غيره، إلا أنها كانت مدخلاً للحديث عن الصورة العامة للمجتمع القرشي المشرك.

فقد شبّهت الآيات اللاحقة وضع أثرياء المجتمع المكي الغني وأنايتهم وحبهم للمال بما جرى لأصحاب بستان من البساتين الذين أنعم الله عليهم بوفير الحصاد، فكان هذا اختباراً وابتلاءً لهم ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ أي اختبارنا المجتمع القرشي ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ فقد تمتعوا بنعمة الوفرة الزراعية، فهل كان في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم؟

كلا، فقد اتفقوا على أن يحصدوا المحصول بصورة خفية ليستأثروا به ويمنعوا الفقراء ولو من حصة قليلة منه: ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ، أَنْ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ، فَانْطَلِقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ، أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مُسْكِينٌ﴾ ولكنهم اكتشوا لاحقاً أن الجنة قد احترقت ليلاً، فخسروا بذلك كل شيء.. وهكذا أنتم يا أهل مكة الأغنياء، احذروا أن تكررُوا هذه التجربة المؤلمة.

• المنطلق الإنساني:

و لنلاحظ أن الإنفاق هنا باللحاظ الإنساني، فالتحذير لأهل مكة المشركين، كما أن عطاءهم لا يُتوقع أن يكون للمسلمين مثلاً، أي أن

مساعدة الإنسان المحتاج بما هو إنسان ورفع معاناته أمر يحبه الله ويندب إليه. ففي الإسلام ارتبط عنوان الإنفاق على المحتاجين والأيتام وعق العبيد ب بدايات الدعوة، فلو افترضنا أن سورة (المدثر) هي رابع ما نزل من القرآن الكريم على ما قيل، فإننا سنجد حديثاً عن إطعام المساكين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ، قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ، وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمُسْكِينِ﴾ (المدثر: ٤٢-٤٤).

وهكذا نجد في سورة الليل - التي قيل أنها تاسع ما نزل من القرآن - حديثاً متكرراً عن العطاء: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى، وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى... وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى، الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ (الليل: ٥-١٨).

وعملت الآيات القرآنية على توضيح الارتباط بين الإيمان والعطاء المالي: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ، فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ، وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ﴾ (الماعون: ١-٣)، وعلى التشجيع على أنواع العطاء وتنويع المستفيدين: ﴿فَكَ رَقَبَةً، أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ، يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ، أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ (البلد: ١٣-١٦).

• تشريع الإنفاق الواجب:

ثم جاءت عملية التنظيم والتشريع للإنفاق بحسب ما هو عليه الآن في

العهد المدني، فكانت البداية بتشريع خمس الغنائم في رمضان من السنة الثانية، ثم زكاة الفطر في نفس الشهر ثم تشريع زكاة المال.

إلا أن هذا التنظيم التشريعي لم يبلغ الإنفاق المندوب، بل استمر القرآن في الحث عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦١) حيث كانت هذه الآية منطلقاً لحديث موسّع استمر إلى الآية ٢٨١ وتناول آداب هذا الإنفاق وموارده وأثاره الدنيوية والأخروية. ونحن اليوم بحاجة ماسة إلى استحضار هذه الآيات ومفاهيمها حيث تستفحل المعاناة الإنسانية يوماً بعد يوم.

• تقرير أو كسفام:

مؤخراً كشفت منظمة (أو كسفام) الخيرية لمكافحة الفقر، عن أن أكثر من نصف ثروات العالم، ستصبح العام المقبل حكراً على واحد في المئة فقط من الناس، وأن ثروة أغنى ٨٠ فرداً في العالم، تعادل ما بحوزة ٣,٥ مليار شخص يمثلون النصف الأفقر من إجمالي سكان العالم. صورة بشعة تقترب من صورة أصحاب اللجنة ونموذج المجتمع القرشي حيث الجشع والأنانية.

إن كل ما تقوم به الدول الاقتصادية الكبرى من عقد مؤتمرات كمنتدى (دافوس) الاقتصادي، ومشاريع إنمائية في المجتمعات المحرومة لا تمثل في

حقيقتها سوى عملية ذرٍّ للرماد في العيون، ولذا فإن الهوة السحيقة التي تفصل بين الفئة ذات الثراء الفاحش وتلك المحرومة من أبسط مقومات الحياة لا تزدد إلا اتساعاً وعمقاً.

إن الإسلام على الرغم من تشريع الزكاة والخمس وغيرهما من الفرائض المالية، بقي يحض المسلمين على الإيثار والإنفاق والعطاء بصورة أرحب، واستمر في فتح آفاق العطاء بأنواعه، مع التأكيد على أن يكون ذلك كله في سبيل الله الذي يصب في مجرى الحياة، في ما تُسدّ به خلة إنسان، أو تُقضي به حاجة مستضعف، أو تُغيث به ملهوفاً، أو تُطعم به جائعاً، أو تكسو به عُرياناً، وما إلى ذلك من قضايا الإنسان المحروم أو الضعيف. واليوم يعيش إخوانٌ لنا في سوريا معاناةً قلّ نظيرها في العقود الأخيرة، في أجواء الحرب والقهر والهجرة والتهجير والقتل الجماعي والاستغلال والأوبئة وفقدان الأمن والحرمان من أبسط أساسيات الحياة، علاوةً على الظروف الجوية الصعبة التي تزيدهم ألماً إلى آلامهم، ومعاناةً إلى معاناتهم. وإنّ من مسؤوليتنا أن نُقدّم مما استخلفنا الله عليه من مالٍ للتخفيف من هذه المعاناة التي طال أمدّها وألقت جِرائها، حتى باتت وكأنّها القدر الذي لن يزول عن بلد طالما ارتبطنا به في تاريخنا وفي مشاعرنا وفي زيارتنا الدينية وفي سياحتنا الترويحية، فلعل شيئاً مما نُنفقه في هذا الطريق يُعيد إلى طفلٍ جائع أمل الحياة، وإلى أمٍّ مفجوعة ابتسامةً - ولو لأيام قلائل - وقد حُرمت منها لسنوات متواصلة.

لا تُطلقوا الأحكام على الآخرين ٢

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ «البقرة: ١١١-١١٣».

• رسالتان عظيمتان:

بعث الله سبحانه النبي موسى (عليه السلام) برسالة وشريعة امتدت عبر الزمن، وصار لها أتباعها.. ثم بعث الله النبي عيسى (عليه السلام) برسالة تبث الروح في أتباع الرسالة الموسوية بعد أن قست قلوبهم، دون أن تلغي الرسالة السابقة أو تسفّه الإيمان بها: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ «المائدة: ٤٦».

وهكذا، كان الإنجيل مصدقاً بالتوراة، كما كان عيسى مصدقاً بها، وربّما

كان في التكرار إشارةً إلى أنَّ الإنجيل تابع لشريعة التوراة، فلم يكن في الإنجيل إلاَّ الإمضاء لشريعة التوراة، إلاَّ ما استثناه عيسى (عليه السلام) في قوله: ﴿وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ «آل عمران: ٥٠».

• أصحاب الحق المطلق:

وعلى الرغم من كل هذه الحقائق إلاَّ أن أتباع الرسالة العيسوية ادَّعوا أنهم وحدهم الذين يمثِّلون الحق المطلق وليس عند اليهود شيء من الحق، ولذا فإنه لن يدخل الجنة إلاَّ من كان متَّبِعاً لهذه الرسالة دون سائر الناس. ومن قبلُ كفر اليهود بنبوة عيسى وبالإنجيل، وادَّعوا أنهم وحدهم الذين يمثِّلون الحق المطلق، وأن ليس عند النصارى شيء من الحق، ولذا فإنه لن يدخل الجنة إلاَّ من كان يهودياً دون مَنْ سواهم.

• لمن الجنة؟

وتأتي الآيات القرآنية - أولاً - لتستنكر تقسيم الناس على الجنة والنار، فليس هذا من شأن أحد، بل هو من الأمور التي يختص بها الله وحده. وادَّعاء اليهود بأن اليهود وحدهم من أهل الجنة هو مجرد أمنيات باطلة، لا تمثِّل قول الله، ولا تعاليم الرسل والرسالات. وهكذا حال ادعاء النصارى بأنهم وحدهم أهل الجنة. ثم فنَّدت الآيات الأفكار المتعلقة بتسفيه الرسالات والشرائع السماوية الأخرى، واعتبرت هذه الادعاءات مجرد هلوسات وأفكارٍ إنسانيةٍ باطلة، لا تمثِّل قول الله، ولا تعاليم الرسل والرسالات.

• ما وراء الخلل :

واستنكرت الآيات صدور مثل هذه الأقاويل من كلا الطرفين، في الوقت الذين يتلون فيه التوراة والإنجيل، وليس فيهما هكذا تعاليم، بل إن تعاليم الكتب السماوية تؤكد على خلاف ذلك، فما لكم لا تحتكمون إليها؟ إن صدور مثل هذه الادعاءات منهم ليس إلا دليل على أن تلاوتهم لكتبهم السماوية لا تعدو أن تكون تلاوة بلا تدبر، أو تلاوة مع تفسير لنصوصه بما يوافق أهواءهم، لا من خلال الدلالة الحقيقية لتلك النصوص. وما حال الطرفين في هذا إلا كحال المشركين الذين قالوا أن الرسول (صلى الله عليه وآله) ليس على شيء، وادّعوا أن الذي جاء به: ﴿إفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا، وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ «الفرقان: ٤-٥».

• القاعدة الإلهية:

أما القاعدة التي يجب الالتزام بها فتتمثل في كون: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فكل إنسان يعيش هذه الحالة فهو - بحكم الله - من أهل الجنة، بعيداً عن الأسماء والعناوين التي تُقسّم الناس إلى أتباع هذا الدين أو ذاك. فالآمنون يوم القيامة هم الذين يسلّمون وجوههم لله في الإيمان والعبادة والعمل الصالح الحسن، فلا ينطلقون في إيمان إلا إذا كان ينسجم مع



وحي الله، ولا يدخلون في عبادة إلا من خلال تجسيدها للمعنى الحق
لعبودية الإنسان لله، فلا يشركون بعبادته غيره ولا يعبدون سواه.

• رسالة الله إلى المسلمين:

إن هذه الآيات الكريمة من سورة البقرة، من الآية ١١١-١١٣ وإن
كانت تتحدث عن حال اليهود والنصارى إلا أنها توجّه إلى المسلمين
رسالةً ضمنية مهمة، ألا يقعوا في الخطأ الذي وقع فيه من سبقهم، فليس
من حق المسلمين أن يسفّهُوا الرسائل السابقة وأتباعها، فقد بعث الله
نبيّنا الأكرم مصدّقاً لإخوانه من الأنبياء الذين سبقوه، وأنزل القرآن
داعياً للإيمان بالرسالات وبالكتب السماوية التي نزلت من قبل. وبدلاً
من ذلك، فليسع المسلمون إلى فتح آفاق الحوار الفكري الجاد مع أتباع

تلك الرسائل السماوية لتقديم الصورة الحقيقية للإسلام، وفي مسعى لتحقيق التعايش السلمي بين أتباع تلك الرسائل. ثم إن على المسلمين أن يدعوا أمر الجنة ومَن يدخلها إلى الله (سبحانه وتعالى)، فهو وحده الحَكَم في ذلك، وليكن القرآن هو الأساس في تكوين هذه الرؤى والمفاهيم الإيمانية، وهو الحكم الفصل عند وقوع الاختلاف في الرأي.

• جهل بالقرآن:

وهذا أيضاً ما يجب أن يفهمه المسلمون الذين يتلون القرآن الذي يؤمنون به جميعاً، ولكنهم يكفّر بعضهم بعضاً ويسفّه بعضهم بعضاً، ويحكم بعضهم على الآخر بالمصير في الجنة أو النار. وما هذا إلا نتاج التلاوة الخالية من التدبر، أو التفسير الموجه من خلال التعصب والأهواء، بسبب افتقاد المسلمين إلى الروحية التي تُضفي على الخلاف جواً من السعي إلى الحقيقة للوقوف معها مهما كانت النتائج، بعيداً عن كلّ تعصب وتعقيد، ولأنّ ما تُبدّل من جهود للتخفيف من ذلك تبقى في إطار المؤتمرات الموشّحة بالكثير من المجاملات والعناوين الرنانة والمضامين العاطفية بعيداً عن أي خطابات شعبية عامة تصحّح مفاهيم الناس، وتهذّب أفكارهم وسلوكياتهم، وتتحوّل إلى خطوات عملية ملموسة تخفف من وطأة كل هذا الشحن الطائفي الذي لا يعبر سوى عن جهل بالقرآن وعن أمنيات باطلة ستنكشف حقيقتها في الآخرة ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

عداوة و تعايش

تحدثت في المقال السابق عن أن الله تعالى ذمَّ اليهود والنصارى لأنهم قسَّموا الجنة والنار كما يشاءون، ولأن كلاَّ منهما كان يسفِّه الرسالة السماوية التي كان يؤمن بها الآخر. وذكرتُ أن الآيات لا تقف عند اليهود والنصارى، بل تمثِّل رسالة ضمنية إلى المسلمين كي لا يكرروا ذات الخطأ مع الآخرين، وفي ما بينهم أيضاً. كما قلت بأن الإسلام لا يسعى وراء الحروب، بل يريد الدعوة في أجواء السلم، وأن الحرب في الإسلام لرد العدوان ودفع الذين يريدون القضاء عليه.

• أشد الناس عداوة للمؤمنين:

هذا الحديث دفع بعض الأخوة للتساؤل: كيف نوفق بين ما سبق، وبين قول الله (سبحانه وتعالى): ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (البقرة: ١٢٠) وكذلك قوله (عز وجل): ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ (المائدة: ٨٢)؟

الآية الأولى تصف إرهابات الدعوة، وأن اليهود والنصارى - بصورة عامة - لن يقبلوا هذه الدعوة، بل يريد كل طرف منهم أن يتنازل النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) عن متبنياته ورسالته لصالح ما يتبناه كل طرف

منهم... وحينها سيتغير موقفهم إلى موقف الرضا. ولذا فإن تتمة الآية هكذا: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ وهي تحمل تحذيراً من مثل هذا التنازل.

• وثيقة المدينة:

وهذا لا علاقة له بمسألة التعايش السلمي معهم، ولذا نجد أن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) بعد الهجرة قد عقد مع يهود المدينة وثيقة تتضمن مثل هذا التعايش، بل أكثر من ذلك، فقد جاء فيها: (وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ) يهلك (إلا نفسه وأهل بيته. وأن لليهود بني النجار مثل ما لليهود بني عوف، وأن لليهود بني الحارث مثل ما لليهود بني عوف). ومعنى كونهم أمة مع المؤمنين، أن لهم من الحرمة في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم مثل ما للمؤمنين (المسلمين)، إلا من ظلم واعتدى منهم، فإنه بعدوانه هذا يسلب عن نفسه هذا الحق، دون أن يعم بذلك سائر اليهود من قبيلته. فهل كان الله (سبحانه وتعالى) يجهل أن اليهود أشد الناس عداوة للذين آمنوا حتى سمح للنبي أن يعقد معهم هكذا اتفاقية؟ جل ربنا وعلا عن ذلك علواً كبيراً... بل إن النبي (صلى الله عليه وآله) صالح يهود خيبر في السنة السابعة للهجرة وأبقاهم فيها على الرغم من دخولهم في حرب معه وعداوتهم الشديدة.. فالمسألة أن علينا التفريق ما بين واقع

الدعوة ونظرة الآخر وشعوره تجاهك، وبين مسألة التعايش السلمي لو اتفق الطرفان على ذلك.

• منهج دائم:

ولا تخص المسألة واقع المسلمين بين الضعف والقوة، بل هكذا كان الأمر مع نصارى نجران بعد سنوات من هذه الوثيقة، وحين قويت شوكة الإسلام، فإن النبي (صلى الله عليه وآله) أقرهم على ما هم عليه، وقبل التعايش معهم في الجزيرة العربية ضمن وثيقة بينت ما لهم وما عليهم.

بل هكذا كان الأمر مع المشركين الذين لم يعتدوا ولم يناصروا المعتدين: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ «الممتحنة: ٨». ولذا نجد أن علياً (عليه السلام) بعد كل عهد الفتوحات وقوة الدولة الإسلامية يوصي مالكا الأشر: (وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللفظ بهم، ولا تكونن عليهم سبعا ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان، إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق) كل الرعية بصنفيهم ما داموا يحترموا القانون ويلتزمون بالعهود.

• لا للتطبيع مع الصهاينة:

وهذا يجرنا إلى تساؤل مهم وخطير.. أهذه دعوة للتطبيع مع الكيان الصهيوني؟

بالطبع لا، فهذا الكيان غاصب ظالم معتدي، ولذلك لا يجوز التطبيع معه.. وحديثي إنما كان عن اليهود كأتباع رسالة، وقد تعايش معهم المسلمون في فلسطين قبل الاحتلال الصهيوني، بل وفي سائر أنحاء العالم الإسلامي، بل وما زال اليهود يعيشون في العراق وتونس والمغرب ولبنان واليمن وإيران وغيرها.

● وثيقة المدينة:

وأخيراً أقول: إن القرآن الكريم وإن صُنِّف أتباع الرسالات السماوية، وذمَّهم في بعض القضايا الإيمانية والأخلاقية والعبادية، ووَسَمَهم أحياناً بالكفر أو التمرد، إلا أن هذا لا يعطينا الحق - كمسلمين - في أن نوجّه طبيعة معاملتنا لهم وفق هذا التصنيف، فنحن مأمورون بالالتزام بالمبادئ الأخلاقية من قبيل حُسن الجوار أياً كان دين هذا الجار، كما جاء في الحديث أن: (الجيران ثلاثة: جارٌ له حق وهو المشرك له حق الجوار، وجارٌ له حقان وهو المسلم، له حق الجوار وحق الإسلام)، وأن نكون الأمناء الصادقين مع جميع الناس برّهم وفاجرهم، بل إننا لا نحتاج إلى كثيرٍ عناءٍ كي نكتشف وفرة النصوص التي تدعو إلى صنع مناخٍ إيجابيٍ للتعايش مع الآخر ما دام أن الآخر يريد ذلك ويُقبل عليه، بل كيف يمكن لنا أن ندعو الآخرين إلى ديننا ونهديهم إلى الإسلام بالسنتنا أو بسلوكنا في الوقت الذي ننغلق فيه على مجتمعنا الإسلامي فقط، ولا نُظهر أية بوادر طيبة وصادقة تجاه الآخر كي يفتح لنا قلبه وعقله ليسمع كلامَ الله؟

إِصْرُ الْأَوْهَامِ

﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ «يونس: ٣٦».

قد يحاصر الإنسان نفسه بمجموعة من الأفكار والتصورات التي تُثقل حركته في الحياة، وتُعقِّدها.. بل ولربما تحولها إلى حياة لا تُطاق. ومن أمثلة ذلك: المبالغة في الخوف من العين والسحر، سوء الظن في الآخرين، الوسواس القهري، الإيمان بالطالع والأبراج وقراءة الفنجان والكف، وغيرها.

• مخاطر المحاصرة بالوهم:

هذه الأفكار تدفع المبتلى بها إلى القلق الدائم من حوله، وما حوله، ومن الأحداث التي ربما تكون بسيطة أو عفوية أو عابرة، ولكنه يضخمها ويقدم لها تفسيرات، ويرتب عليها آثار سلبية، من بينها: أولاً: قد توقعه في الحرام، من قبيل الاستعانة بالسحر، أو اللجوء إلى قطع الرحم، أو إيذاء الجار، أو اتِّهام الأبرياء.

لاحظ الارتباط بين الأفكار التي لا تقوم على أساس قوي وبين بعض السلوكيات السلبية المحرمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ



إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٢-١٣﴾» (الحجرات: ١٢-١٣).

أي أن هذا التنوع البشري لا يراد له أن يعيش هكذا حالة متأزمة ومتصارعة، بل حالة من التفاهم والتكامل.

ثانياً: أو قد تدفعه إلى الاستعانة بما هو وهم، من قبيل التحرّز بالخرز وحدوة الحصان. في وسائل الشيعة عن محمد بن مسلم قال: (سألت أبا جعفر (عليه السلام): أنتعوذ بشيء من هذه الرُقَى؟ قال: لا، إلا من القرآن،

إِنَّ عَلِيًّا (عليه السلام) كان يقول: إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الرُّقَى وَالتَّمَامِ مِنَ الْإِشْرَاكِ). وعن القاسم قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): (إِنْ كَثِيرًا مِنَ التَّمَامِ شَرَكٌ). والتميمة: خرزات كان العرب يسلكونها ضمن خيط ويشكّلون منها حلقة يعلقونها في أعناق أولادهم يَتَّقُونَ بها العين.

ثالثاً: ولربما تجعله إنساناً منزوياً أو مرهقاً من ضغط الوسواس. ولصاحب كتاب الجواهر الشيخ محمد حسن النجفي كلمة لطيفة حول تكلف الوسواسيين في النية، قال: (فبسببه تحصل بعض أحوال لهم تشبه أحوال المجانين، وليت شعري أليست النية في الوضوء والصلاة وغيرهما من العبادات كغيرها من سائر أفعال المكلفين من قيامهم وقعودهم وأكلهم وشربهم؟).

رابعاً: أو قد يتخذ إجراءات عملية بناءً على سوء الظن بالآخرين أو اعتماداً على الطالع وهي ليست سوى أوهام. وكما جاء في حكمة علوية: (سوء الظن يُفسد الأمور ويبعث على الشرور).

• الإسلام وتحرير الإنسان:

هذه الأفكار والتصورات كانت موجودة عند الإنسان الجاهلي، وكان من بين جهود الإسلام تخليص الإنسان وتحريره من هذه الأثقال حيث قال الله (عز وجل): ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمْ

الطِّبَّاتِ وَيَحْرُمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴿١٥٧﴾ (الأعراف: ١٥٧). ومن أهم وسائل التخلص من تلك الأغلال:

١- العلاج المعرفي:

بتصحيح المفاهيم ذات العلاقة، هل هناك شئ اسمه (عين) أم لا، وإن صدقت بوجود ذلك فهل له كل هذا التأثير المتوهم؟ وهكذا بالنسبة إلى السحر، والأحكام الشرعية الخاصة بالطهارة والنجاسة، وحرمة سوء الظن، وعدم قدرة أحد على كشف الغيب... إلخ.

٢- العلاج الإيماني:

بالإكثار من ذكر الله (عزوجل) وصفاته وقدرته، واللجوء إليه والاستعانة به والتوكل عليه دائماً توكلاً حقيقياً وفعالاً، فقد قال (عزوجل): ﴿وَمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠٠-٢٠١). وقال (سبحانه وتعالى): ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨). وعن الإمام علي (عليه السلام): (أن رجلاً من الأنصار أتى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال: يا رسول الله أشكو إليك ما ألقى من الوسوسة في صلاتي. إنني لا أعقل ما صليت من زيادة أو نقصان! فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): إذا قمت في الصلاة فاطعن في فخذك اليسرى بإصبعك اليمنى المسبحة، ثم قل: بسم الله

وبالله توكلت على الله، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، فإن ذلك يزجره ويطرده).

٣- العلاج العملي:

بمواجهة الخلل، من قبيل ما روي عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) أنه قال: (لا تعودوا الخبيث من أنفسكم بنقض الصلاة فتطمعوه، فإن الشيطان خبيث يعتاد لما عود، فليَمضِ أحدكم في الوهم، ولا يُكثِرْ نقض الصلاة، فإنه إذا فعل ذلك مرات لم يعد إليه الشك. قال زرارة: ثم قال (عليه السلام): إنما يريد الخبيث أن يُطاع، فإذا عصي لم يعد إلى أحدكم).

• الإسلام وتحرير الإنسان:

لقد جاء الإسلام بتعاليمه ليخلص الإنسان من العبوديات بأنواعها، إلا عبودية الله (سبحانه وتعالى)، وليحرره من كل التصورات الوهمية والخرافية التي يحاصر بها نفسه، وتربك له حياته، وتدفعه إلى ارتكاب ما لا يُحمد عقباه، وليفك عنه كل الإصر والأغلال التي تُعيق حركته في الحياة وتثقل كاهله بالالتزامات التي إن لم تضره، فهي لن تعود عليه بالنفع. ولذا فإن مسؤوليتنا أن نتبصر في تعاليم ديننا، وأن لا نُعير عقولنا للآخرين كي يملؤوها بما شاءوا، بل أن نتفكر قبل أن نُقبل على شئ أو نُقبل بشئ، فالله (سبحانه وتعالى) يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾.

٥

كتاب الله أم كتاب إلهي؟

من آثار الأعمال الإجرامية للجماعات التكفيرية إعادة طرح إشكالات قديمة متجددة حول الإسلام من ناحية فكرية وتشريعية وتاريخية وأخلاقية. ومن بين ما طُرح مجدداً وأثير عبر وسائل الاتصال الاجتماعي مسألة: هل القرآن كتابُ الله أم كتاب إلهي؟

• إشكالات على الوحي:

والمراد من هذا الإشكال إثبات أن القرآن كتاب أرضي بنفحات سماوية، هو كتاب صاغه النبي (صلى الله عليه وآله) بكلماته وتعابيرهِ حين امتزجت التسديدات الربانية والإشراقات الإلهية على قلبه مع:

- ١- معارفه الشخصية على مستوى معلوماته التاريخية والجغرافية والأدبية وغيرها.. وهذا هو التفسير الحقيقي لوجود بعض المعلومات التاريخية والفلكية الخاطئة والسَّقَطات النحوية واللغوية في القرآن بحسب ادعائهم.
- ٢- تأثير العناصر الشخصية والتغيرات المزاجية والحالة النفسية للنبي (صلى الله عليه وآله) على النص القرآني.. ومن خلاله نفهم - مثلاً - لماذا يتغير الخطاب في القرآن حول أمر معين، من مديح ومهادنة إلى ذمٍّ وعنف وأمر بقتال.

٣- تأثير البيئة والقوانين والأعراف الحاكمة عند تأليف النص القرآني على التشريعات الواردة فيه.. وبالتالي فإن هذه التشريعات والأعراف القرآنية لا تلزمنا مادامت الظروف قد تغيرت، وعليها أن تتطور كما تطور الفكر والسلوك الإنساني الفردي والعام، لاسيما وأن في بعضها قساوة مبررة حين صدور النص القرآني، إذا نظرنا إلى البيئة التي عاش فيها النبي، ولكنها غير مبررة الآن نتيجة تغير الظروف والزمان.

• الطريقة الأولى:

والجواب على هذا الإشكال يكون بطريقتين:

الطريقة الأولى: بالرجوع إلى النص القرآني، فبماذا يصف القرآن نفسه؟
١- ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ «الشعراء: ١٩٢-١٩٥».. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ «يوسف: ٢».. ومثلهما آيات أخرى، وهي تدل على أن كل القرآن بقلبه وألفاظه العربية إنما هو وحي من الله نزل على النبي (صلى الله عليه وآله)، وليس من صياغة النبي وتعبيراته.

٢- ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ «القيامة: ١٨» وهي تدل بوضوح على أن الوحي والقرآن قد قرأ على النبي (صلى الله عليه وآله)، والقراءة تكون للألفاظ لا للمعاني.. ثم هل من عاقل يُنشئ نصاً ثم يذكر في هذا النص أن عليه اتباعه؟ ثم كيف يسمح الله للنبي أن يتبع كل القرآن وفيه أخطاء؟

٣- بعد أن ذكرت سورة البقرة قصة طالوت وجالوت وداود قال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ «البقرة: ٢٥٢» والتلاوة هي القراءة المتتالية، فهو إذاً نصٌ تلي على النبي من قبل الله عن طريق الوحي، وليس مجرد أفكار إلهية جعلها النبي في صورة كلام. ثم إن هذه الأحداث التاريخية حق لا خطأ فيها، فهي ليست مما تعلمه النبي من أهل الكتاب، بل من الله، وهي ليست معلومات خاطئة، بل حق.

٤- يؤكد القرآن على أن أمر القرآن بأجمعه ليس بيد النبي، بل هو وحي من عند الله بأكمله، ولو حذف أو غير منه شيئاً فإن عاقبته ستكون وخيمة جداً: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعِ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ «يونس: ١٥».. فهل هذا شأن كتابٍ يمزج بين المعارف الإلهية الحقة والمعلومات الإنسانية المعرضة للخطأ؟

• وحيٌ مُنزل:

وهناك آيات كثيرة تدل على أن القرآن كله وبنصّه، لا ببعضه ولا بمعانيه وأفكاره، قد نزل من عند الله عن طريق الوحي جبريل (عليه السلام)، وقد قال الله (عز وجل): ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ﴾ ﴿قَسَمٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ، وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ، عَلَّمَهُ شَدِيدٌ

الْقَوَى ﴿ وَهُوَ جَبْرِيلُ، وَجَبْرِيلُ هَذَا ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى، وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى، ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى، مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ حيث رأى النبي جبريل في صورته الحقيقية ﴿ أَفْتَمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾. فإما أن يكون النبي - حاشاه - كاذباً في كل هذه الآيات، وإما أن يكون متوهماً، وإما أن يكون صادقاً عالماً، والقرآن يقول أنه: ﴿ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ «الحاقة: ٤٣-٤٦».

• الطريقة الثانية:

أما الطريقة الثانية للرد على الإشكال فهي كالتالي:

١- هناك فرق بين أن يكون الخطأ في النص والخطأ في الفهم.. ولنأخذ مثال (السموات السبع)، حيث كان الناس على عهد النبي يعتقدون أن فوق الأرض سبعة أفلاك، واحدة للقمر، وواحدة لعطارد، وواحدة للزهرة إلخ. وجاء قدماء مفسري القرآن ففسروا هذا المصطلح وفق هذه النظرية البطليموسية، ثم ثبت خطأ هذه النظرية علمياً.. فهل نُحمِّل النص القرآني هذا التفسير الخاطئ؟

٢- وهناك فرق بين أن يثبت خطأ المعلومة بشكل يقيني وعلمي أكيد، وبين أن يكون الإنسان ما زال عاجزاً أمام الوصول إلى حقيقة علمية ما. فعدم اكتشاف علماء الفلك للسموات السبع إلى هذا اليوم، لا يعني

عدم وجودها حتى يقال أن القرآن قدّم معلومة خاطئة اعتماداً على علم الفلك الشائع في ذلك الزمان.

٣- هم يقولون أن القرآن أنجز برعاية إلهية فيما يخص المعارف الغيبية كصفات الله والآخرة والإخبارات المستقبلية وما في القرآن من حكمة وقيم رفيعة، فلماذا لم تمتد يد الرعاية الإلهية للتشريعات والمعلومات التاريخية والعلمية وغير ذلك لتصونها من الخطأ؟! هل كان عجزاً من الله أم عجزاً من النبي؟! فمن يستطيع أن ينال من حقائق الغيب برعاية الله، فإنه من باب أولى يستطيع أن ينال من حقائق الدنيا بالرعاية الإلهية. ثم إن وجود الأخطاء المدّعاة يسلب الثقة بكل القرآن.. أحقاً يريد الله أن يسلب ثقة الناس بالقرآن كما هو حاصل عند هؤلاء المشككين؟

• القرآن كتاب الله:

إننا نؤمن إيماناً جازماً بأن القرآن الذي بين أيدينا هو كلام الله بأكمله وبألفاظه، لا خطأ فيه ولا وهم، وأنه نزل من عند الله على نبينا الكريم محمد (صلى الله عليه وآله) عن طريق الوحي الأمين جبريل (عليه السلام)، وأن الهداية والفلاح لا يتحققان إلا بالإيمان بذلك والعمل به حيث قال (عز وجل): ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ، أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (البقرة: ٢-٥).

العقل و الإيمان

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ، وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠-٣٣).

تؤكد هذه الآيات الشريفة على تمييز الإنسان بميزة تجعل الاختيار الإلهي له ليكون خليفته على الأرض، والأمر الإلهي بالسجود له أمراً قائماً على أساس معلوم، وليس مجرد أمر تعبدية.

ومن هنا اعتبر جملة من المفسرين أن هذا التمييز يتلخص في الإبداع الإلهي بخلق العقل البشري القادر على الخلائقية والتطوير، وهو ما يميز العقل البشري عن عقل الملائكة، إذ أن عقل الملائكة غير قادر على ذلك.. كما يميزه عن عقل الحيوان، فالحيوان يفكر - ولو بشكل محدود -

ولكن هل يمكنه تفكيره أن يصنع لنفسه حضارة؟

وعليه، فإن التعليم المذكور في الآية ليس من نوع التعليم الإلقائي التدريسي، وإلا لما كان في هذا فضيلة لأدم على الملائكة الذين كان بإمكانهم حينئذ أن يقولوا: ربنا، أنت أخبرته بهذه الأسماء ولم نخبرنا، ولو أخبرتنا لكننا مثله عارفين، فأَيّ ميزة وكرامة ذاتية لأدم علينا؟

• عقل خارق:

الدماغ البشري كتلة من الدهون والبروتينات تزن ١,٤ كجم، ولكنه يحتوي على حدود ٨٥ مليار خلية عصبية تتصل فيما بينها بـ ١٠٠ تريليون ارتباط، ويبلغ الطول الكلي للمسارات العصبية في الفرد البالغ: نحو ٥ ملايين وثمانمائة ألف كم، أي أنها تستطيع أن تلف محيط الكرة الأرضية نحو ١٤٥ مرة.. هذا المخلوق شديد التعقيد في خلقه وفي أدائه، كيف تحدث القرآن عن دوره وعلاقته به؟

اعتبر القرآن أن العقل هو الحجة بين الناس والله، وهو الذي يُعرف به الله وحقائق العقيدة، وتُعرف به الحياة، ومن بين المصطلحات التي استعملها القرآن في هذا الإطار (أولو الألباب)، و(الألباب) جمع لب، واللّب هو العقل، أو ما زكى من العقل، باعتبار أنه يشبه اللّب من الأشياء، في مقابل القشر: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ «آل عمران: ١٩٠». حيث ينبغي للإنسان أن لا يواجه نظام الكون باللامبالاة أو بشكل سطحيّ، بل أن يستعمل عقله وأن يجرب ويستنتج ويدرس القوانين التي تحكم هذا الكون، لأنه عندما خلق

الكون، جعل فيه نظاماً دقيقاً لا يمكن أن يخترقه أيّ انحراف: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ﴾ «الملك: ٣».

وحينها سيصل إلى نتائج على مستويين: مستوى معرفي يرتبط بهذا الوجود، يوظفه في صالح البشرية، ومستوى معرفي يرتبط بإيمانه بخالق الوجود وصفاته سبحانه.

• رسالة إلى الشباب:

يا شبابنا، أيها الأعضاء.. شاشات الأجهزة المتنوعة أخذت من وقتكم وجهدكم الكثير.. اعطوا لأنفسكم فرصة للتفكير والتدبر.. الكمية الهائلة من المعلومات الموجهة التي تُضخ عبر الإنترنت قد تعطيكم المعرفة، ولكنها قد لا تفتح أمامكم فرصة التدبر، وقد لا تسمح بذلك، هذا إن لم تكن العلاقة بهذه الشاشة علاقة عبثية أصلاً من خلال الاستغراق في اللهو وتوافه الأمور. وحينها قد تتحول هذه الشاشات إلى ما يشبه المخدرات، وحرمة المخدرات تنطلق من أنها تُلغي عقلك!

فرّق بين أن تأخذ المعلومة وتتدبر فيها، وبين أن تراكم المعلومات فوق بعضها البعض لتشكّل عندك رصيذاً معرفياً قد لا يكون لك رأي فيها، بل تصبح مجرد خازن لها ووسيلة لعرضها.

إن الله سبحانه خلق عقولنا كي نتدبر ونفكر، لا لكي يفكر الآخرون فقط، ومنتظر منهم العطاء.. نعم، لا غنى عن أفكار الآخرين، ولكن من الخطأ أن نجعل هذا هو المورد الوحيد، ولذا بعد أن اعتبر الله أن هذا الوجود



آيات لأولي الألباب قال (عزوجل): ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ «آل عمران: ١٩١».

ومن خلال هذا التفكير تنال الحكمة التي تحتاجها في تدبير حياتك الدنيا، وفي التخطيط لمستقبلك الآخروي: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ «البقرة: ٢٦٩».

• علم وإيمان:

إن العالم الحقيقي بالإضافة إلى أنه يفكر ويتدبر ويبحث ويجرب ويستنتج، فهو لا يحصر هذا كله في الجانب المادي من المسألة، بل ينطلق

من خلالها ليعمّق المسألة الإيمانية، لأنه بالتدبر سيصل إلى نتيجة مفادها أن الحكيم الذي خلق هذا الوجود لم يخلقه باطلاً: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا؟﴾! «المؤمنون: ١١٥».

لتبدأ رحلة البحث عن الهدف من هذا الخلق، والتي ستدفعه إلى ضرورة الارتباط بالخالق، وإظهار العبودية له، والالتزام بأوامره ونواهيه، لأن عدم العبثية في الخلق تعني المسؤولية والمحاسبة ﴿وَأَنكُم إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾؟! • العالم الحقيقي:

ومن هنا فإن العقل والعلم والوجود وقوانينه بأجمعها تدفع إلى تعميق الإيمان بالله واليوم الآخر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ، وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ «فاطر: ٢٧-٢٨».. إن هذه الرؤية العقلية المتدبّرة في الخلق وقوانينه هي التي تخلق العلماء الحقيقيين: ﴿كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ لتدفعهم حينها إلى الارتباط الأعمق بكلام الله وإلى العمل الصالح، وهو ما أكدته الآية اللاحقة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ لماذا؟ لأنهم آمنوا بالآخرة عن قناعة وتدبر وتعقل، ولم تكن هذه المسألة بالنسبة إليهم مجرد فكرة توارثوها عن آبائهم وأجدادهم فتهتز مع أدنى تشكيك: ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ، لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورُهُمْ وَيُزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

V

حرية الفكر

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء: ٣٦).

﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (يونس: ٣٦).

الحديث السابق عن قدرة العقل البشري على الخلاقة والإبداع أثار التساؤل التالي: مادام الأمر كذلك، فهل يسمح لنا هذا بالقول أن الله يريد للإنسان أن يكون حُرّاً في تفكيره ليكون قناعاته حول كل شيء بذاته؟ أم أن لهذه الحرية قيوداً؟ السؤال مهم وحساس جداً، ونحتاج للإجابة عليه إلى بعض المقدمات:

• المقدمة الأولى:

أراد الإسلام للإنسان أن يفكر بنفسه، ليصل إلى قناعاته، ولذا ذم تقليد الآباء والأجداد: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (المائدة: ١٠٤).. وقد تكررت هذه الفكرة في أكثر من آية.

قال (عزوجل) حاثاً على التفكير الذاتي: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ «الروم: ٨»، وقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَارِكُمْ﴾ «سبأ: ٤٦».

• المقدمة الثانية:

لا كهنوت في فهم الدين، فليس هناك فئة من علماء الدين في الإسلام تملك وحدها شرعية تفسير القرآن والسنة، لذلك فإن الملم بالأدوات التي تتيح له فهم النص الإسلامي، يستطيع أن يفهم ويستنتج، فالقرآن مشاع لكل الناس، والسنة مشاعة لكل الناس. نعم، قد يخطيء المرء فيهما، فيُنَبِّه إلى خطئه، وقد يصيب.

وأعود لأؤكد على شرط الإمام بالأدوات، كاللغة مثلاً، وأحياناً التاريخ، مع عملية التتبع والاستقراء والمقارنة، ومَنْ لا يملكها لا يصح له أن يفسّر كما يشاء، تماماً كما في الطب والهندسة والكيمياء وغيرها، فمن لا يملك أدواتها فإن رأيه سيكون مجرد ظن وتخرّص في الغيب.

ولذا قال (عزوجل) في إشارة إلى واحدة من تلك الأدوات: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ، رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ «آل عمران: ٧-٨».

وبعدم الالتزام بتلك الأدوات نشأت بعض المذاهب الفكرية والفقهية في الدائرة الإسلامية، وازداد انقسام الأمة، واليوم نعيش تكرار هذه التجربة أيضاً، من خلال أفراد غير متمكنين من تلك الأدوات وغير متتبعين للنصوص ولكنهم يتبنون وي طرحون أفكاراً بذريعة حرية التفكير كما ذكرت بخصوص هل القرآن كتاب الله أم كتاب إلهي.

• المقدمة الثالثة:

هذا لا يعني أن لا تسأل ولا تناقش ولا تحاول أن تفكر... ولكن لا تحسم الأمر إلا بالرجوع إلى من يملكون الأدوات لتسأل وتناقش وتحاول أن تتوصل إلى قناعة في المسألة، لأن الظن لا يغني من الحق شيئاً. - والمناقشة مفتوحة بحيث أن النص إذا خالف الحقيقة العلمية، فإنه يؤوّل لمصلحة الحقيقة العلمية، لا تكلفاً، ولا إلغاءً، بل من خلال أن في اللغة والتعبير إمكانية احتمال أكثر من معنى بسبب الكناية والتشبيه إلخ.

والمناقشة والاستشارة ضرورية لأن بعض الإشكالات والأدلة قد تفوت الإنسان مهما كانت درجته العلمية عالية، ويُنقل عن الشهيد السيد محمد باقر الصدر وهو أحد أعلام هذا العصر في الفكر الإسلامي أنه كان يبحث في أمر فقال لعل هارون لم يكن نبياً، فذكره أحد تلامذته بقوله (عز وجل): ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ (مريم: ٥٣)، فتألم كيف أن الفقه بيده كالعجينة، بينما شعر بغربة عن القرآن، وصمّم على إثرها أن يبدأ درساً في التفسير.



• المقدمة الرابعة:

في المسائل الشرعية القضية غير مفتوحة، فليس لك أن تُحرّم الحلال أو تحلّل الحرام أو تلغي تكليفاً كالزكاة مثلاً لأنك فكرت وبحثت فوجدت أن النظم الاقتصادية والإدارية والاجتماعية قد تطوّرت، فأصبح الناس في غنى عن الزكاة.. أو تلغي تكليفاً كالصلاة على اعتبار أن الهدف منها أن تجعلك إنساناً صالحاً من خلال دورها في النهي عن الفحشاء والمنكر، فمتى ما حققت ذلك في نفسك فإنك أصبحت في غنى عنها.. فالمسائل الشرعية ترتبط بأحكام وقوانين مُنزلة من عند الله، ونؤمن بأننا ملزمون بها، ووظيفة الباحث أن يتوصل إلى تلك الأحكام المنزلة من مصادرها وقواعدها، وعملية التفكير الحر هنا تتم في إطار البحث ضمن تلك المصادر والقواعد.

• المقدمة الخامسة:

القضايا ذات البُعد الغيبي كالملائكة والجن والتفاصيل المتعلقة بالجنة والنار وأمثال ذلك موكولة إلى الوحي الذي قد يتحدّث عن بعض أسرارها، ولا يصح إنكارها بذريعة حرية الفكر.

• لا قيمة للظن:

إن حرية الفكر قيمة إنسانية، وإبداع عقلي، يفتح لنا آفاق التطوير، ويجدّد لنا الطاقات، ويُعطي القوة والثبات والحركة للفكر الإسلامي، شريطة أن يتم ذلك من خلال الحجة والبرهان، وقد قال (عزوجل): ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، أما الظن فلا يغني عن الحق شيئاً، وما قامت حضارة الإسلام في التاريخ إلا من خلال التنوع الثقافي، وقد جعل هذا التنوع من الإسلام حضارة، ومن المسلم شخصيةً إنسانيةً غنية. فإذا أردت أن تحمل فكرة فلا بد من أن يكون هذا الشيء الذي تلتزمه واضحاً عندك، بحيث تستطيع أن تدافع عنه، إما من خلال ما توصلت إليه بنفسك، أو من خلال الاعتماد على الذين يحملون الثقافة الواسعة العميقة في الموضوع المحدد، وليس على كل شخص يدّعي علماً أو ثقافةً، لأنّ هناك الكثير من الناس قد يتزيّا بزّي العلم أو زي الثقافة من دون أن تكون لديه دراسة أو إحاطة بهذا الموضوع، ولكنه يُزخرف قوله ويزيّنه لكي ليُخفي الخلل. وما أكثر الذين يعيشون الجهل في المجتمعات، ولكنهم يبرزون بصورة العلم.

نظام الإرث في الإسلام

٨

الإرث من الأحكام الإسلامية الدقيقة والمعقدة حتى أن إتقانه كان من معايير الثناء على العلماء، فيقال: (كان أفقه أهل زمانه في الفرائض) أي في النسب وأحكام الإرث والورثة.

ولكن خصوصية نظام الإرث في الفقه الإسلامي ليست في هذا الجانب، بل في أن الإسلام قدّم هذا النظام وفق معايير جديدة تنبني على أمور، من بينها:

• حدود حرية التصرف في الملك:

أولاً، في حياتك، يمكنك أن تنفق ما تملكه بشروط:

١- عدم الإنفاق في الحرام.

٢- عدم الإسراف.

٣- الالتزام بالواجبات المالية المفروضة من قبل الله كالزكاة.

٤- الإنفاق على من يجب عليك الإنفاق عليهم، كالزوجة والأبناء بما

يناسب وضعك الاجتماعي والاقتصادي.

على أن الإسلام قدّم عدة توصيات أخلاقية مستحبة ذات علاقة بعملية

الإنفاق، كالتصدق والإهداء والتوسعة على أهل وغير ذلك.

أما فيما يتعلق بما تتركه من مال (نقد ومسكن وسيارة وأسهم ومحل تجاري... إلخ) بعد مماتك، فلا يُسمح لك بتقسيمه أو التصرف فيه كما تشاء، بل قنّ ذلك بدقّة ضمن نظام الإرث وبحِصص معيّنة.

فمن المنظور الإسلامي، ما بيدك من مال إنما هو في الحقيقة مُلك الله، وأنت مستخلف فيه: ﴿أَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ﴾ (الحديد: ٧).

ثم إن الإنسان نتيجة العامل العاطفي والقراءة الظاهرية للأمر لن يصل إلى الكيفية الأصلح في التعامل مع تركته، ولذا بعد الحديث عن بعض أحكام الإرث يقول (عز وجل): ﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١١).

نعم جعل له الحق في أن يوصي بمقدار لا يتجاوز الثلث، ولكنه غير ملزم بأن يوصي به، على أن يلحظ الموصي بأن تكون الوصية في:

- ١- أمور مشروعة.
- ٢- أن لا تتحول إلى وبال على الورثة كأن يوصي بالثلث من كل شيء، بما في ذلك مسكن الأسرة والأثاث.
- ٣- أن لا تكون هذه الوصية سبباً لحرمان الورثة من مال هم بحاجة إليه، فعن النبي (صلى الله عليه وآله): (إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس في أيديهم).

وعن الإمام الباقر (عليه السلام): (كان أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول:

لئن أوصي بخُمس مالي أحب إليّ من أن أوصي بالربع، ولئن أوصي بالربع أحب إليّ من أن أوصي بالثلث).

٤- أن لا يؤسس بها أسباب النزاع بين الأبناء، بتخصيص الثلث أو بعضه لأحدهم دون الآخرين، ومن غير سبب. عن الباقر (عليه السلام): (مَنْ عدل في وصيته كان كمن تصدَّق بها في حياته، ومن جار في وصيته لقي الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة وهو عنه مُعرَض).

• تفتيت الثروة:

ثانياً، تفتيت الثروة لثلاث تتجمع في يد شخص واحد كالابن الأكبر، كما كان الأمر أحياناً في الجاهلية، باعتبار أنه الذي يقوم مقام الأب في رعاية شؤون العائلة. مما قد يتحول إلى سبب للظلم والطغيان والاستغلال.. ونحن نجد اليوم أنه مع نظام الإرث الإسلامي، لو كان أحد الأبناء، أو العم مثلاً، هو الوصي على الإرث، كيف تُنتهَب الحقوق، فكيف بالمسألة لو شرَّعت؟

• للمرأة نصيب:

ثالثاً، إعطاء المرأة نصيباً مفروضاً من التركة، وذلك على خلاف النظام المتبع في الجاهلية، بلحاظ أنها لا تُقاتل دفاعاً عن العشيرة، ولا تُنتج لتُنْفِق على العائلة. فكان الإرث للأبناء، وربما كان للولد الأكبر بالذات، أما الإسلام فاعتبر أن لعنوان الرحم والسبب بالزوجية مدخلية في الأمر. ولذا فلا يُحرَم أحد من الأبناء الذكور والإناث من الإرث ولا الزوجة.

• التفاوت في الفروض:

رابعاً، عدم التغافل عن التفاوت في تحمل المسؤوليات بين الورثة، ولذا

كانت حصة الرجل أكثر من حصة المرأة، من دون أن يكون في ذلك انتقاص لإنسانية المرأة، بل كل ما هناك أن الإسلام يُلزم الرجل بالإنفاق على مَنْ يُعيلهم، دون المرأة، فكانت حصته أكبر لمساعدته في تغطية إنفاقاته الإلزامية. وقد أثار ابن أبي العوجاء هذه المسألة لمؤمن الطاق قائلاً: (ما بال المرأة المسكينة الضعيفة تأخذ سهماً واحداً وتأخذ الرجال سهمين؟) فكان جواب الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): (إن المرأة ليس عليها جهاد ولا نفقة ولا معقلة وإنما ذلك على الرجال، ولذلك جعل للمرأة سهماً واحداً، وللرجل سهمين).

• أنفق حال حياتك:

وأخيراً أقول مناصحاً: إِنَّ مَنْ يريد فعل الخير فليفعل ذلك في حياته، وليُحْكِم الأمر ويراقب التنفيذ كي يُنفق المال بما يُرضي الله.

صحيح أن المال عديل الروح ومن الصعب التنازل عنه، ولكن كم من نزاعات وسرقات وضياع للأوقاف وإهمال للوصية حدثت، فلم يتحقق للموصي مراده، ولا تم توظيف تلك الأموال في وجوه البر بما يعود على المجتمع والأفراد بالخير والتنمية، وقد قال (عز وجل): ﴿وَأَنْفَقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ، وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المنافقون: ١٠-١١).

المرأة في مسيرة النبوات

للمرأة في مسيرة النبوات الدورُ الفاعل بما يتناسب مع أهم مسؤولياتها في الحياة، ووضعها الاجتماعي.

• مع الخليل إبراهيم:

ففي مسيرة الخليل إبراهيم (عليه السلام) التوحيدية، نجد أم النبي إسماعيل (عليه السلام) وهي تحتضن طفلها الرضيع في أرض قفر.. لم تكن المسألة متعلقة بصراع بين ضرّتين، بل بمسؤولية رسالية: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ (إبراهيم: ٣٧).

إنَّ عليها أن تقوم لوحدها بتربية هذا الطفل كي يبلغ المستوى الذي يقول معه: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الصفات: ١٠٢). فإن كان هذا هو أمر الله فأنا من المسلمين.

وهل كانت إقامة الصلاة ل تتم عند البيت المحرّم، وتنمو بذور الإيمان في أفئدة الناس لولا نهوض السيدة هاجر بدورها في تربية ابنها بذلك المستوى المتقدم من التربية الإيمانية والروحية؟

• مع الكليم موسى:

هكذا نجد المرأة حاضرة في قصة النبي موسى (عليه السلام) في شخصية الأم التي أعيد إليها ولدها، لتحضنه وليداً مباركاً، لا لتكون مرضعةً له فحسب، بل لتكون الصناعة الإلهية لموسى من خلالها: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ «طه: ٣٩»، حين تؤسس فيه عناصر الإيمان لينطلق من قصر فرعون بكل ما يمثله من طغيان وجبروت، فيكون نبياً حاملاً رسالة الله، ومجدداً لدعوة جده إبراهيم.

• مريم والمسيح:

ثم نجد امرأة عمران واشتياقها لوليدٍ مباركٍ ينفخ الروح في ذلك المجتمع البائس الذي ابتعد كثيراً عن نهج التوحيد، وانغمس في الشهوات، فنذرت ما في بطنها مُحَرَّرًا، ليكون عبداً خالصاً لله.

ولكنها اصطدمت بواقع أن الوليد كان أنثى.. وليس الذكر كالأنثى في مساحة الحركة الاجتماعية وطبيعة الدور المناط بكل منهما.

وما درت هذه السيدة الجليلة أن هذه الوليدة المباركة - مريم - ستكون أمّاً لذلك الولد الذي تمنّته من منطلق رسالي، لا كما تتمنى الأمهات أن يكون لهن الامتداد في هذه الحياة بولد يشرفها في الدنيا، وحسب.

فهل كانت طبيعة مريم الأنثوية عائناً أمام سموها الإيماني والروحي؟ لقد انبهر بها نبي ذلك الزمان ولذا ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ

ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ «آل عمران: ٣٨» وهكذا كانت الطاهرة المصطفاة مريم، سيدة أخرى لها ذلك الحضور القوي في تنشئة وليدها تنشئةً هيأته ليكون نبياً عظيماً هو السيد المسيح.

• مع سيد المرسلين:

ومع نبينا الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله) في المرحلة الأولى الأصعب من مسيرة الرسالة كانت السيدة خديجة (عليها السلام)، التي احتضنت الرسالة، فكانت خير معين.. لقد أمنت به حين كفر به الناس، وأوتته إذ رَفَضَهُ الناس، وَصَدَّقَتْهُ إذ كَذَّبَهُ الناس.. ثم رَزَقَ منها بمولودةٍ غَدَتِ سيدةَ نساء العالمين.. وبرحيل أمِّ القاسم.. خديجة الطاهرة.. أحست الزهراء (عليها السلام)، وهي ما زالت تلك الطفلة الصغيرة، بعظم المسؤولية، فلم تكن لتسمح بأن يشعر أبوها في خضم صراعه المتواصل مع الشرك بفرار ذلك الرحيل المؤلم، فأضحت له بمثابة الأم، بكل ما للأُمومة من عطاء روحي وزخم معنوي ورعايةٍ حانية ومشاعرٍ فياضة.. وفي المدينة، كان لها أن تنتقل إلى بيت الزوجية، لتضيف إلى مسؤوليتها تجاه أبيها، مسؤولية الزوجة لرجل بحجم علي (عليه السلام)، ومسؤولية الأم لولدين شاء الله تعالى أن يكونا سيديَّ شباب أهل الجنة.

ولم تُهمل في خضم مسؤولياتها الرعائية لأب وزوج وأبناء، مسؤولياتها الإيمانية والروحية، فكانت العابدة الزاهدة، الصائمة القائمة، فأشبهت أباه الذي ما كان يرتضي لنفسه أن ينقطع عن الصلاة ولو تورمت قدماه.

وكذلك كانت الرسالة حاضرةً في كل حياة الزهراء (عليها السلام).. احتضنتها صغيرة، ورعتها شابة، ودافعت عنها مكلومةً برحيل أبيها، فأقبلت إلى مسجد أبيها، في لمةٍ من حفدتها ونساء قومها، تطأً ذيولها، ما تحرم مشيتها مشية رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فنيطت دونها ملاءة، فجلست، ثم أتت أنه أجهش لها القوم بالبكاء، فارتجّ المجلس، ثم أمهلت هنيئة، حتى إذا سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم، افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله، فعاد القوم في بكائهم، فلما أمسكوا عادت في كلامها، وخطبت خطبتها المشهورة.

وما أمهلها الزمان كثيراً، فما أسرع أن ارتحلت عن هذه الدنيا التي لم يتعلق قلبها بها لحظة، فخسر بذلك المسلمون خسارة كبيرة بعد خسارتهم رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فقد كان كل ذلك الفيض الزاهر لفاطمة وهي في ريعان شبابها حتى غدت سيدة نساء العالمين، فماذا لو كُتب لها أن تمتد بها الحياة سنوات وسنوات؟

• الزهراء قدوة الفتيات:

إننا نريد لفتياتنا أن يتعلمن من سيرة الزهراء (عليها السلام) رحابة الإيمان وطهارة النفس وسمو الأخلاق وعفاف الروح وحياء القلب والجوارح، لا أن يحبسوا ذكراها في دهاليز المآسي ومغاليق الأحزان، أو أن يحولوها إلى أيقونة فوق بشرية ينالها التقديس وتترأى لهم في الأطياف، ولا يكون لسيرتها المليئة بصور السمو الإنساني الحضور الحي في مفردات الحياة.

الأمة الوسط

١٠



﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٤٣).

ما المراد بالوسط في الآية؟ وكيف تتحقق الشهادة؟

اختلفت كلمات المفسرين في فهمهم للمراد من الآية الشريفة، ومن بين هذه الآراء:

• الرأي الأول:

اعتمد على المعنى اللغوي لكلمة وسط، ففي اللغة: وسط الشيء يعني ما بين طرفيه. وعندما نصف شيئاً بأنه وسط، فهذا يعني أنه يتصف بالعدل والتوازن. وبالتالي فإن الآية تريد أن تقول أن التشريعات الإسلامية تشريعات متوازنة وسطية، لا هي بالمتطرفة في الاتجاه الروحي كما هو الحال عند النصارى، ولا هي بالمتطرفة في الاتجاه المادي كما هو الحال عند المشركين واليهود.

كما أن الإسلام يتوازن في تعاليمه بين متطلبات الجماعة واحتياجات الفرد، فلا يلغي دور الفرد وشخصيته كما في الشيوعية مثلاً، ولا يُعطي كل القيمة للفرد على حساب المجتمع كما في الرأسمالية. ويتوازن الإسلام أيضاً من حيث أنه يدفع الإنسان للعمل من أجل الآخرة، ولكنه يعطيه الحق أيضاً أن يعمل للدنيا ويتمتع بمتعتها ضمن ضوابط معينة.

وهناك مصاديق كثيرة للتوازن في تعاليم الإسلام وتشريعاته وقيمه ومفاهيمه، مما يمكن معها فهم معنى الوسطية في الإسلام بحسب هذا التفسير.

وبالتالي فإن معنى الشهادة على سائر الناس يعني أن تعاليم الإسلام وتشريعاته وقيمه هي المعيار الذي يجب أن يُقيّم من خلاله ما عند الآخرين، باعتبار أن الدين قد كَمُلَ بما بُلِّغ به النبي (صلى الله عليه وآله) ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

وأما شهادة الرسول (صلى الله عليه وآله) على المسلمين فتعني أن الله جعل شخصيته (صلى الله عليه وآله) وعبادته وجهاده وسلوكه وأخلاقياته وحكمته هي المعيار الذي يجب أن يُقيّم من خلاله ما عندنا.. هذا هو التفسير الشائع للآية الكريمة.

• الرأي الثاني:

يعتمد هذا الرأي -بالإضافة إلى المعنى اللغوي للكلمة - على إرجاعنا إلى السياق الذي جاءت فيه الآية، وهذه نقطة مهمة وحساسة في فهم الآيات، وكثيراً ما يكون المعنى غامضاً أو نخطئ في فهم الآية بسبب عزلها أو اقتطاع عبارة منها، بينما كثيراً ما يختلف الأمر لو التزمنا بفهم الآية ضمن السياق.

فلو رجعنا إلى السياق الذي جاءت فيه الآية السابقة فيما سبقها من آيات وفيما تلاها، فسنجد أن الحديث يدور حول قضية القبلة، فقد كان المسلمون يتوجهون في صلواتهم منذ العهد المكي نحو المسجد الأقصى،

الأمر الذي دفع اليهود في المدينة إلى التشكيك في أصالة الإسلام، وأن النبي (ابتدع) ديناً من خلال تعاليم اليهود، الأمر الذي هزّ ثقة عدد من المسلمين بدينهم، وأثار شبهة فكرية عميقة، لاسيما بلحاظ نظرة الإعجاب التي كانت تملكهم تجاه أهل كتابٍ لديهم الكثير من قصص الماضين وتفاصيل الأخبار.

ثم جاء نسخ الحكم بتغيير القبلة، ليندفع اليهود في عملية تشكيك أخرى هزّت الثقة مجدداً بالإسلام، لاسيما وأنها التجربة الأولى للمسلمين في عملية النسخ.. حيث قال لهم اليهود: كيف يمكن أن يبدّل الله العليم الحكيم تعاليمه وتشريعاته؟ فالثبات صفة التعاليم الإلهية، والتغير صفة التعاليم الوضعية من قبل البشر.

ولذا جاءت الآيات ١٣٥-١٥٠، لتعالج هذه المسألة بالتفصيل، من أجل إعادة الثقة في نفوس المسلمين، لئلا ينهاروا أمام عمليات التضييل والتشكيك، ولتقول للمسلمين إن الله أراد لكم أن تكونوا الأمة التي تقود سائر الناس إلى قيم الإسلام ومبادئه وأهدافه الكبرى.. وهل يمكن لمن اهتزت ثقته بمبادئه أن يقود الآخرين إليها؟

هذا هو معنى جعلهم أمة وسطاً، أي أمة قائدة - لأنها في المركز - لا أمة تابعة.. ويأتي الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) ليكون في وسط ذلك المركز، باعتباره القائد الأعلى نحو الهداية. فلا تفقدوا الثقة في أنفسكم، ولا تسمحو لهم بأن يهزّوا قناعاتكم في نبيكم ورسالتكم.

وهذا الموقع القيادي الذي اختير لكم يحملكم مسؤولية الموقع، فالقائد في ضمن عمله القيادي يراقب مَنْ حوله بدقة وتتبع، في أفكارهم وأعمالهم، لأنهم يدخلون في ضمن مسؤوليته. وهذا معنى شهادتكم كما جاء في الآية.. تماماً كما أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) في قيادته للأمة يتحمل مسؤولية الموقع، ويراقبكم، وبذا يكون الشاهد عليكم.

• إعادة الثقة:

وسواء فسرنا الآية وفق الرؤية الأولى أو الثانية، فإنني أود أن أعلق على أمرين:

الأمر الأول، أننا اليوم نواجه حملة إعلامية وفكرية متواصلة، مسوّغها الأول جرائم التكفيريين، وأداتها الإعلام المفتوح، وأرضيتها الخواء والسطحية الفكرية لدى المسلمين، ووجهتها الأولى والرئيسية عقولُ شبابنا.

هذه الحملة المحمومة هدفها الرئيسي هزّ ثقة شبابنا بالإسلام في قواعده الإيمانية، وفي تشريعاته الحياتية، وفي تناغمه مع العصر على مستوى قضايا الحقوق والمرأة والحرية ونظام العقوبات.. تماماً كما سعى يهود المدينة لتحقيق ذات الهدف فانبرى لهم القرآن مفنّداً أباطيلهم وموجّهاً أصابع الاتهام إلى انحرافاتهم عن دين الله، ومعيداً الثقة لنفوس المسلمين بأنفسهم وبرسالتهم وبقيادتهم، بل وذكرهم بأن الله قد اختارهم ليكونوا



في الموقع القيادي أو بما يمثله دينهم من اتّزان في أسسه الإيمانية والفكرية والتشريعية والروحية والأخلاقية.

وكما عمل القرآن على إعادة الثقة إلى المسلمين بأنفسهم ودينهم، ووضعهم في المسار الصحيح، فإن مسؤوليتنا اليوم كأولياء أمور ومعلّمين ومبلّغين وأصدقاء ومستعملي وسائل التواصل الاجتماعي أن نعمل في ذات الاتجاه تحت شعار: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

• وثيقة الوسطية في الميزان:

الأمر الثاني، فإنه يتم هذه الأيام إعداد وثيقة (المحاور الاستراتيجية العملية لنشر الوسطية والاعتدال ومواجهة التطرف والعنف في ظل

المتغيرات المحيطة بالمجتمع الكويتي) وقد اطلعت على مسودة الوثيقة التي جاءت في أربعين صفحة تحمل الكثير من التفاصيل حول الأسباب والتحديات وأساليب المعالجة، وتمثل جهداً نظرياً كبيراً.

ولكن مسودة الوثيقة هذه من وجهة نظري جهد قاصر، إذ لم أجدها تذكر ولو لمرة واحدة أن واقع التطرف والأعمال الإرهابية فيما يحيط بنا يعمل في اتجاهين، الأول له علاقة بتكفير الحكومات ومواجهتها بالعنف والسعي لإسقاطها واستبدالها بحكومات إرهابية تحت مسمى الخلافة الإسلامية، وهو ما تشعر أن المسودة تعالجه بصورة غير مباشرة، والاتجاه الآخر له علاقة بالنظرة المتطرفة تجاه الأفراد والجماعات الذين يمثلون الآخر المختلف مذهبياً أو دينياً أو فكرياً وتكفيرهم والسعي لمحوهم من الوجود، وهو ما أهملته المسودة بشكل واضح.. فلا ذكر لعناوين العنصرية والتمييز على أساس العرق والقومية واللون والقبيلة والدين والمذهب، ولا معالجة إلا على أساس عناوين فضفاضة هلامية من قبيل المغالاة والتطرف والوسطية وتوجيه الشباب وفق أحكام الشريعة الصحيحة، وهي كما لا يخفى تحتل أكثر من معنى، وتسمح للشيطان أن يكمن في كثير من تفاصيلها، ونأمل ألا تتحول المسودة بصورتها القاصرة هذه إلى وثيقة معتمدة دون أن تعالج الخلل المذكور، فهل يمكن لمن يؤمن أنه وحده في الجنة ويمثل الحق الكامل وسائر الناس لا يستحقون الحياة وليس لهم في الآخرة إلا النار أن يحمل روحيةً تمكنه أن يبني إنساناً متسامحاً وسطياً؟

اليمن .. التاريخ والحاضر

لليمن في عمق التاريخ البشري حضور ممتد من خلال الحضارات التي نشأت فيها، ومن خلال تفاعلها مع سائر الحضارات التي شهدتها البشرية.

• حضارة الأحقاف:

وفي القرآن حديث عن حضارة قامت على جزء من أرض اليمن، بعد نوح (عليه السلام)، حيث الأحقاف .. الكثبان الرملية التي كانت في وقت ما أرضاً غنية بالمراعي والزراعة وعيون الماء: ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ، وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ «الشعراء: ١٣٣-١٣٤»، وفي وصف أهلها قال: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ «الأعراف: ٦٩»، وفي عمرانهم ومشاريعهم قال: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ «الفجر: ٧» وعن نشاطهم وأفعالهم قال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ «الشعراء: ١٢٨-١٣٠».

• حضارة سبأ:

ثم أعقبتها حضارة أخرى بالقرب منها حيث قال (تعالى): ﴿لَقَدْ كَانَ

لَسَبًا فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ «سبأ: ١٥».

وهذه الصفات التي تمتعت بها هذه الأرض هي التي أكسبتها منذ القَدَم عند أهلها العرب اسم (اليَمَن)، من اليَمَن والبركة.. وعند الرومان واليونان اسم أرابيا فيليكس، أي العرب السعيد.

• في العهد الإسلامي:

وتمضي القرون وتتبدل الأحوال حتى إذا بعث الله نبينا (صلى الله عليه وآله) وفتح مكة، أرسل علياً (عليه السلام) إلى اليمن قبل حجة الوداع، فقد روى البخاري في صحيحه عن البراء قال: (بعثنا رسول الله (صلى الله عليه وآله) مع خالد بن الوليد إلى اليمن. قال: ثم بعث علياً بعد ذلك مكانه فقال: مُر أصحابَ خالدٍ مَنْ شاءَ منهم أَنْ يُعَقِّبَ معَكَ فليُعَقِّبْ) أي فليكمل المهمة معك (وَمَنْ شاءَ فليُقبَلْ. فكنْتُ في مَنْ عَقَّبَ معه).

قال ابن حجر العسقلاني في كتابه فتح الباري في شرح صحيح البخاري: (أورد البخاري هذا الحديث مختصراً) ثم ذكر التتمة، قال: (قال البراء: فكنْتُ مَنْ عَقَّبَ معه، فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا، فصلى بنا عليٌّ وصفَّنا صفّاً واحداً، ثم تقدَّم بين أيدينا فقرأ عليهم كتاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) فأسلمت همدانُ جميعاً) وكان هذا في صنعاء (فكتب عليٌّ إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) بإسلامهم، فلما قرأ الكتاب خرَّ

ساجداً، ثم رفع رأسه وقال: السلام على همدان). ومنذ تلك اللحظة غدا لأهل اليمن الحضور البارز في التاريخ الإسلامي لاسيما في عصر الفتوحات، حيث كان يُعَوَّل عليهم كثيراً لما عُرفوا به من البأس الشديد في القتال.

• اليمنيون في الكوفة:

ومع تأسيس الكوفة كمدينة عسكرية تنطلق منها جيوش المسلمين، انتقلت القبائل اليمنية إليها، غسان وبجيلة وختعم وكندة وحضرموت والأزد وحمير وهمدان والنخع، فتبلور حضورهم الميداني كمساهمين في بناء التاريخ الإسلامي بشكل أكثر وضوحاً.

ويرتبط اسم اليمن في بعض الأحاديث النبوية وأحاديث آل البيت والصحابة بالثناء الجميل، وفي البعض الآخر بالبشارات بظهور المهدي (عليه السلام)، ليكون جزءاً من تلك الحركة المباركة التي ستملأ الأرض قسطاً وعدلاً في آخر الزمان.

• اليمن الحزين:

ويا للأسى أن لا يلف اليمن السعيد اليوم إلا المزيد من الحزن والموت والحروب والصراعات القبلية والفقر إذ تُصنّف اليمن بأنها من أشدّ الدول النامية ذات الاقتصاد المتدهور، وأنها تحتل المرتبة الأخيرة بين الدول العربية من حيث دخل الفرد، حيث لا يتجاوز الدولار الواحد في اليوم! إن ما آل إليه حال اليمن اليوم لأمر مؤسف، ونتطلع إلى أن تعي الأطراف

المتصارعة في اليمن، وعلى اليمن، أن الحرب لا تأتي إلا بالويلات والدمار والتخلف والمزيد من الصراعات القادمة، وهي وإن أفرزت نصراً لطرف على الصعيد العسكري، إلا أن الحقيقة أن الجميع سيكون من الخاسرين، لأن كل حرب ليست سوى جولة في حلقات متواصلة من الصراع الدامي الذي ستبقى الأمة الإسلامية والعربية تنزف من خلاله المزيد من الدماء، ليتربع الكيان الصهيوني على عرش الطمأنينة والأمن، وليطل هذا الكيان الغاصب باستبكاره المعهود على ما حوله من دول لم تعد سوى كيانات تنهش فيما تبقى من مقدراتها، وتستنزف ما تخلف من خيراتها.

• صراع سياسي أمني:

هذا أولاً، وأما ثانياً، فإن الجميع على علم بأن الصراع في اليمن وعلى اليمن ما هو إلا صراع سياسي أمني، وما التداخلات المذهبية التي تمتزج بها الصورة إلا الوسيلة التي تحاول الأطراف المتصارعة من خلالها أن تكسب التأييد والشرعية والامتداد.

إن على الجميع - ولا سيما وسائل الإعلام التي لطالما تحدثت عن أخطار الطائفية والتطرف - أن يتذكروا أن الضرب على الوتر الطائفي سيرتد على الجميع، ونار فتنته لن ترحم أحداً، لأن الحرب متى ما ألبست ثياب الدين والمذهب أصبحت مقدسة، وحينها تهيج النفوس، وتعمى العيون، ويدخل في أتونها حتى العقلاء.

١٢ شابنا في مواجهة صراع النمادج

جاء في الخطبة الفدكية لمولاتنا فاطمة الزهراء (عليها السلام) أنها قالت :
(وكنتم) قبل الهداية إلى الإسلام (على شفا حفرة من النار، مَذَقَ الشارب)
أذلاء ضعفاء بحيث لو كنتم شراباً لما احتاج الأمر أكثر من رشفة ليتم القضاء
عليكم (ونُهْزَ الطامع) كنتم قليلين أذلاء تَمَثَّلُون فرصة جيدة لكل من يطمع
فيكم فيتخطفكم بسهولة (وَقَبَسَ العجلان) أي يمكن إذلالكم واستغلالكم
بكل سرعة وسهولة تماماً كالمستعجل الذي يريد أن يأخذ شُعْلَةً من نار،
فينالها بكل سهولة (وموطئ الأقدام، تشربون الطَّرَق) ماء السماء الذي
تبول فيه الإبل وتَبْعَر (وتقتاتون الورق، أذلة خاسئين صاغرين، تخافون أن
يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمد (صلى الله عليه
 وآله) بعد اللّثيا والتي، وبعد أن مُنيَ بهم الرجال) شجعانهم (وذئبان العرب)
لصوصهم وصعاليكهم (ومردة أهل الكتاب).

في هذا المقطع قدّمت الزهراء (عليها السلام) في مقام إلقاء الحُجّة جانباً من
النموذج الناجح الذي حققه الإسلام من خلال النبي (صلى الله عليه وآله)

على المستوى الأمني والاقتصادي والاجتماعي. فالاحتجاج على الآخر عند الاختلاف أو النزاع لا يقتصر على الجانب الفكري فقط، كأن تقول لهم: ما هي نظريتك الاقتصادية الكفيلة بالقضاء على الفقر في المجتمع؟ أو ما هي رؤيتكم لعلاج تفاقم حالات الطلاق؟ أو كيف تنظرون إلى حرية الكلمة؟ أو ما قولكم في نظرية التطور الداروينية؟

بل الأمر - في مقام الاحتجاج - يتجاوز ذلك إلى الجانب العملي الواقعي والميداني: أين هو النموذج في كل مفردة من تلك المفردات، سواء على مستوى الدولة أو الحزب أو الفرد.. وهذه نقطة مهمة جداً.

• أين النموذج الإسلامي؟

اليوم من ارتدادات جرائم التكفيريين أن بات الشاب المسلم يُسأل - وبغرض جرّه إلى الإلحاد أو اللادينية - أين هو النموذج الإسلامي على مستوى الدولة أو الحزب أو الفرد والذي يثبت مصداقية الإسلام في أطروحاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتنموية وغير ذلك؟ يقولون لشبابنا: لا يكفي أن تتغنوا بمجموعة من النظريات الأخلاقية والتشريعية والروحية، بل قدّموا لنا النموذج الصالح المتحقق على الأرض ولو على مستوى الأفراد.

وتبدأ هنا سلسلة من المقارنات.. على مستوى الدول: العالم ينفق حوالي ٥٣٦ مليار دولار على مجالات البحث العلمي، وتنفق اليابان



لوحدها ١٣٠ مليار دولار.. أما العرب فإنفاقهم لا يتجاوز ٥٣٥ مليون دولار. والكيان الصهيوني احتل المرتبة الأولى عالمياً من حيث نصيب الفرد من الإنفاق على البحث العلمي. الدول العربية تنفق أقل من ١٥ دولاراً على الفرد في مجال البحث العلمي، بينما ينفق الكيان الصهيوني أكثر من ١٢٧٠ دولاراً على كل فرد.

على مستوى الأحزاب: ماذا قدمت الأحزاب الإسلامية السنية والشيعية في تجربة الحكم سوى تكرار الأخطاء التي وقعت فيها حكومات سبقتها ولم تكن على رأسها أحزاب إسلامية، إن لم تكن تجربتها أسوأ من سابقتها؟

على مستوى الأفراد: أين هم الأفراد الذين نجح الإسلام في صياغة شخصياتهم ليكونوا إنسانيين في مشاعرهم وفي سلوكياتهم وفي عطائهم وفي تفاعلهم مع الآخرين؟ أليست شخصية المسلم المتدين اليوم هي شخصية الإنسان القلق والمتوتر والمنغلق على نفسه.. الإنسان العدواني والفوضوي وغير المنضبط بالقوانين؟ الإنسان المستهلك وغير المنتج ولا المبدع؟

• تحطيم صورة التدين:

بمثل هذه المقارنات على مستوى النماذج الواقعية تتحطم صورة التدين عند مجاميع من شبابنا وتدفعهم إلى الإلحاد أو اللادينية. وإذا كنا نقول: لا تحملونا مسؤولية ما تفعله الحكومات والأحزاب.. إلا أننا لا نملك أن نقول أن لا دخل لنا بما نفعله نحن كأفراد.. فأين هو نموذج الإنسان المسلم الصالح الذي نقدمه لأبنائنا وللأجيال؟ أنا لا أتحدث على مستوى الصلاة والصيام والحج، ولا حتى الصدقة، بل أتكلم على مستوى القيم:

قيمة العلم عندي أنا، ولو كان من حولي لا يهتمون بالعلم. قيمة الوقت عندي أنا واحترامي للوقت، وإن كان من حولي يعتبرون الوقت ألعوبة بأيديهم.

قيمة النظام عندي أنا والتزامي به، وإن كان من حولي يعيشون قمة الفوضى في كل شئ.

قيمة التفكير عندي أنا، وإن كان من حولي أتباع كل ناعق.

قيمة الحوار وتقبل الاختلاف عندي أنا، وإن كان من حولي ضيّقي الأفق لا يفهمون حقيقة التنوع في الحياة.

هذا كله - وغيره - بأيدينا نحن ومسؤوليتنا نحن أن نحققه لنقدم من خلاله نماذج حية للإنسان الذي جاء الإسلام ليخرجه من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن التخلف إلى الحضارة، ومن الفقر إلى الرفاه، ومن التمزق إلى الوحدة، ومن الذل إلى العزة.. دون أن نتظر ماذا يفعل الآخرون.

• فلنتحمل مسؤوليتنا:

إن المقارنات التي تُعقد في أجواء ما يُعرف اليوم بصراع النماذج الذي أعقب صراع الأفكار والنظريات يمثّل تحدياً كبيراً يواجهنا كمسلمين غارقين في صراعات طائفية نجتُّ من خلالها أحداث التاريخ، ونساق وراء حماقات دعاة الفضائيات، وإثارات الإعلاميين المأجورين، ومخططات رجال الاستخبارات، لتتحول إلى منابر نكفر بها بعضنا البعض، وإلى رصاصات نمرق بها أجساد بعضنا البعض، وإلى صواريخ نفجر بها جامعاتنا ومدارسنا المتهالكة، وإلى انتحاريين مهووسين بتحويل الأطفال والنساء إلى أشلاء، وإلى ساديين يستلذون بنحيب الأرامل ودموع الشكالي ومشاهد النار والدمار.. وإن كان نتعذّر بأن وضع الحكومات والأحزاب خارج نطاق اختصاصنا ومسؤوليتنا، فإن وضعنا كأفراد هو ملكنا، وبأيدينا أن نغيّره، والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

شفاعة المسيح

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَلَمْ أَقُلْ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ، مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ، إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (المائدة: ١١٦-١١٩). في الآيات السابقة رسائل تريد إيصالها من خلال ذلك الحوار، وأذكر منها رسالتين:

• معنى ألوهية السيدة مريم:

قد نفهم اتخاذ عيسى (عليه السلام) كإله من خلال عقيدة الثالوث، ولكن ألوهية السيدة مريم (عليها السلام)، وكذلك اتخاذهما إلهين من دون الله،

فهذا ما نحتاج إلى فهمه، لأن النصارى لا ينفون ألوهية الله (سبحانه وتعالى). في المنطق القرآني ليس بالضرورة أن يعلن الإنسان ألوهية شيء ما - سواء أكان نبياً أو حاكماً أو شيطاناً أو جهةً اعتباريةً كالحزب أو غير ذلك - كي يصبح إلهاً بالنسبة إليه، بل يكفي أن يبلغ هذا الشيء عنده مستوى من الأهمية والانسحاق فيه والطاعة له بحيث ينسى الله من خلاله، ويصبح بالنسبة إليه كل شيء، ويقدم إرادته على إرادة الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ «الجناتية: ٢٣»، فهل يعلن أحدنا أنه قد اتخذ هواه إلهاً له؟

وهذه نقطة حساسة جداً، فإن طاعة السيد المسيح (عليه السلام) كانت واجبة على الناس في حياته، وحب السيد المسيح كان لازماً في أوامره ونواهيه وكان هو أولى بالمؤمنين به من أنفسهم حال حياته ولكن كل هذا لا أصالة له.

فالأصل في المسألة طاعة الله وحب الله والانسحاق في ذات الله، وأما طاعة السيد المسيح وحبّه وولايته فتأتي كفرع عن تلك، وتابعة لها.. ولو اعتقد الإنسان أصالتها فإنها تتحوّل إلى نوع من التآليه!

وقد يتطور هذا التآليه الخفي للنبي - حين يُستغرق فيها - إلى إلغاء عملي لألوهية الله، دون أن يعي الإنسان ذلك.

وما يقال بالنسبة إلى المؤمنين بالسيد المسيح يقال بالنسبة إلى المسلمين في نظرهم إلى النبي أو الإمام أو الصحابي أو شيخ الطريقة أو غير ذلك. فلننتبه إلى مشاعرنا ودعائنا وتوجّهنا، وإلا كررنا ذات الخطأ.

• المستحقون للشفاعة:

في خواتيم الحوار الذي نقلته الآيات يقول السيد المسيح (عليه السلام): ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وفي طيات هذا التعبير طلب وتشفع.

وكأنه (عليه السلام) يقول: يا رب، إن هؤلاء قد آمنوا بي، ولكنهم أخطؤوا تقييم الأمور فغالوا واستغرقوا في ذاتي ونسوا ألوهيتك، ومن العدل أن تعذبهم، لأنهم خالفوا قانون عبوديتهم لك، ولكن فلتسبق رحمتك عذابك، ولتغف عنهم.

فماذا كان الرد الإلهي؟ ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ فلا يكفي الادعاء، ولا يكفي العنوان الذي يحملونه، ولا تكفي المحبة لك في قلوبهم، ولا يكفي الإيمان المجرد، بل لابد أن يُصدق فعلهم إيمانهم ومشاعرهم، إلزاماً بأوامر الله ونواهيه، وبالتقرب إليه والإخلاص له.

ولذا فإن الذين يتصورون أن الحب المجرد والإيمان الساذج سيخلصهم من عسير الحساب والعقاب على معاصيهم أملاً في شفاعة الشافعين مخطئون، وما ذلك إلا ﴿كَسْرَابٍ بَقِيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ «النور: ٣٩».

• أوهام باطلة:

أيحسب أكل مال اليتيم أن بزيارته لمرقد الإمام قد ضمن شفاعته، والله

يقول: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾؟ فهل يرضيه الله؟ وهل يشفع الإمام لمن لا يرضيه الله؟ يجيب القرآن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (النساء: ١٠). وعلى هذا فقس سائر المعاصي.

وإذا كان من غير الإنصاف - في حسابات الدنيا - أن يتساوى الطالب المستغرق في اللهو، المهمل لواجباته، الذي لم ترتق نتائج إختباراته إلى المستوى المطلوب، مع الطالب المجتهد المجد، لمجرد أنه يحمل في قلبه حباً للمعلم، أو لأنه ابن صديق له، أو لأن قريباً للمعلم قد توسط له وقبلت وساطته وشفاعته.. فكيف بمحكمة العدل الإلهي؟ ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا، يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا، وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا، وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ (طه: ١٠٨-١١٢). وهذه هي حقيقة الشفاعة في الآخرة، فهي لا تتمثل اعتراضاً على حكم الله، ولا تدخلاً في شأن الله، ولا استباقاً لإرادة الله، بل هي منزلة وكرامة للشفيع بعد أن يأذن الله من أجل أن يرتقي المؤمن الصالح في مرتبته، أو ليتجاوز عن ذنب صغير ارتكبه، أو خطأ جهله ولم يُصرَّ عليه.. وقد خاب من ترك الانتهال من واحات الطاعة، وأكل الحرام وارتكب الفواحش وانتهك الحرمات، ثم منى نفسه بالجنة أملاً في أوهام السراب.

لكل قوم هاد

روى العياشي في تفسيره عن الإمام أبي جعفر الباقر (عليه السلام) في قول الله (عز وجل): ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ «الرعد: ٢» قال: (عليّ الهادي، ومناّ الهادي. فقلت: فأنت جعلت فداك الهادي؟ قال (عليه السلام): صدقت. إنّ القرآن حيّ لا يموت، والآية حيّة لا تموت، فلو كانت الآية إذا نزلت في الأقسام وماتوا ماتت الآية لمات القرآن، ولكن هي جارية في الباقيين كما جرت في الماضين).

• المطالبة بالمعاجز:

لو عدنا إلى الآية سنجدّها كالتالي: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾. فكيف نفهم الآية؟ كان الكفار - وبالحاح مستمر - يطالبون النبي (صلى الله عليه وآله) بالمعجزة المادية، أسوة بمن سبقه من الأنبياء، ممن عرفوا قصصهم، وحكاة القرآن في أكثر من موضع.. فلماذا لا تكون لك معجزة مادية حتى تؤمن بك؟ والجواب: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا

الْأَوَّلُونَ ﴿الْإِسْرَاءُ: ٥٩﴾ وعندما كَذَّبُوا بها نزل عليهم العذاب وَقَضِيَ عليهم، فالله لم يستجب لِإِلْحَاكِمِ رَحْمَةً بِكُمْ، لَأنَّه يريد هدايتكم لا القضاء عليكم.

ثانياً، الآية تخبرنا أن تحقيق المعاجز ليس بيد النبي (صلى الله عليه وآله)، بل هو أمر إلهي، أما مسؤولية النبي فالإنذار والتبليغ والدعوة والهداية، وليس الاستجابة لطلبات الناس التعجيزية.

ثالثاً، فإن إرسال الهداة إلى الناس ليس بالأمر الجديد، وأنت - يا محمد - بكونك هادياً لهم لست بدعاً من الرسل، وهؤلاء الهداة قد يكونون من الأنبياء أو ممن سواهم من الأوصياء والعلماء كما يحدث في زمن الفترة.

• الهداة بعد النبي:

وبما أن الناس بعد وفاة النبي سيحتاجون إلى هذا الهادي، فقد أخبرهم به كما روى ذلك الطبري وآخرون عن ابن عباس قال: (لما نزلت: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ وضع (صلى الله عليه وآله) يده على صدره فقال: أنا المنذر، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ وأوماً بيده إلى منكب عليّ، فقال: أنت الهادي يا عليّ، بك يهتدي المهتدون بعدي).

وهذا ما دفع السائل ليستفسر عن المراد من قوله (عزوجل): ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ لا سيما بلحاظ أن البعض لم يكن يحلو لهم أن يكون علي بن



أبي طالب (عليه السلام) هو المقصود، فوجهوا الآية توجيهاً غريباً فقالوا أن المراد من الهادي هنا هو الله (عز وجل) كما هو المروي عن مجاهد والضحاك. وواضح أن هذا المعنى لا يتناسب والآية.

فأكد الإمام الباقر (عليه السلام) ما روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) في كون علي (عليه السلام) هو المصداق الأول بعد رسول الله.

ثم فتح الباب لبيان أن هذا الأمر لا يتوقف عند علي (عليه السلام)، بل يستمر في العترة من أهل البيت حيث قال: (ومنا الهادي)، وهو ما دفع السائل من جديد ليستفسر عن الهادي في زمانه قائلاً: (فأنت جعلت فداك الهادي؟) فكان الجواب مثبتاً.

• تحفة علمية:

وقدّم له الإمام (عليه السلام) بعد ذلك تحفة علمية: (إن القرآن حي لا

يموت، والآية حيّة لا تموت. فلو كانت الآية إذا نزلت في الأقوام وماتوا ماتت الآية لمات القرآن، ولكن هي جارية في الباقيين كما جرت في الماضي).
فالقرآن كتابٌ هدايةٍ وليس كتاباً تاريخياً يهدف إلى سرد بعض الأحداث، وبمثل هذه التطبيقات العملية نُبقي القرآن هادياً لنا وفاعلاً في حياتنا.. وهذا ما يُعرف بعنوان قاعدة الجري.

• نماذج أخرى:

وقد كان الإمام الباقر (عليه السلام) حريصاً على تقديم نماذج من هذه القاعدة، ومن ذلك ما رواه العياشي في تفسيره عن أبي بصير قال: (سألته عن قول الله (عز وجل): ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ «الأنعام: ٨٢»، قال (عليه السلام): نعوذ بالله يا أبا بصير أن تكون ممن لبس إيمانه بظلم. ثم قال: أولئك الخوارج وأصحابهم).

من جديد يستفيد الإمام (عليه السلام) من آية تتحدث عن دعوة النبي إبراهيم الخليل (عليه السلام) لقومه لينطلق منها في تطبيقين عمليين:
الأول: يخص السائل فيوجّهه توجيهاً إيمانياً سلوكياً كي لا يكون ممن خلط إيمانه بظلم، لكل ما للظلم من مصاديق على مستوى الإيمان كالشرك وسوء الظن بالله.. وعلى مستوى العمل كالتعدي على حقوق الناس والغش والاختلاس والرشوة والحكم بالباطل والفتنة وقتل النفس المحترمة إلخ.

الثاني: ينخص تقديم نموذج عملي حي كان يعايشه الإمام والسائل في ذلك الزمان، لقوم خلطوا إيمانهم بظلم، وهو ما أكدّه الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) من قبل حين سُئل عن حقيقة الخوارج: (أمشركون هم؟ قال: من الشرك فروا، قيل: أمنافقون هم؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً؛ قيل: فما هم؟ قال: إخواننا بغوا علينا).

• تمازج علماني تكفيري:

وأما خوارج العصر من التكفيريين فقد تجاوزوا خوارج ذلك الزمان بمراحل، بل قدّموا نموذجاً جديداً هو مزيج من الفكر الوضعي الإجرامي المتعصب، مع قراءة سلفية متطرّفة للفتاوى والنصوص الدينية. وإلا كيف نفسّر هذا التمازج البعثي التكفيري في بوتقة واحدة تمثل خوارج العصر؟ فحزب البعث حزب علماني قومي إقصائي قام على الإرهاب والأسلوب المخبراتي بأشنع صوره، وفي السنين الأخيرة من حكمه في العراق قام المقبور صدام باللباس حزبه العمّة، فتبلورت من خلال ذلك مجموعات بعثية مخبراتية سلفية وصوفية وشيعية، ثم ظهرت بعد سقوط النظام بصورة مجاميع دينية تكفيرية أو متطرّفة أو تخريبية. في كل يوم تتكشف وثائق جديدة، وقد نشرت صحيفة ديرشبيغل الألمانية مؤخراً تقريراً مثيراً ومفصّلاً عن ضابط في مخبرات صدام كان العقل المدبر وراء سيطرة التكفيريين على شمال سوريا، وتحولّ بقدرة قادر إلى حجي فلان، وكان



من المرشح أن يكون أمير المؤمنين لولا هلاكه. ومثله عزت الدوري الذي كان يوماً نائباً لصدام، ثم غداً بعد سقوط النظام قائد (جيش رجال الطريقة النقشبندية) وهي من الطرق الصوفية، وقادة عملياته الميدانية هم من ضباط الجيش العراقي السابق، وهو ما ساهم في احتلال الموصل وصلاح الدين في يومين بالتعاون مع التكفيريين. وفي الوسط الشيعي تظهر من حين إلى آخر مجاميع من ذات المنبع تدّعي تمثيل الإمام المهدي (عليه السلام)، وتلحس عقول البسطاء بادعاءات وهمية، وتبث أفكاراً هدامة، وتمارس من حين إلى آخر أعمالاً إرهابية باسم التمهيد للظهور. وما مصداق هؤلاء جميعاً إلا كما قال الله (عز وجل): ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾.



كنت قبل أيام أفكر في كلمات أمير المؤمنين (عليه السلام) قبل استشهادهِ بفترة وجيزة حيث كان يتألم شديداً من المواقف المتخاذلة من حوله والتي عبّر عنها في أكثر من مناسبة وبأكثر من أسلوب .

ومنها قوله: (لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيظاً، وجرعتموني نغب التهمام أنفاساً، وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان، حتى لقد قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب .

لله أبوهم! وهل أحد منهم أشد لها مراساً، وأقدم فيها مقاماً مني؟! لقد نهضت فيهم وما بلغت العشرين، وها أنا ذا قد ذرفت على الستين، ولكن لا رأي لمن لا يُطاع).

● مشاهد قرآنية:

وحينها تذكرت مشاهد من القرآن الكريم.. فقد أنقذ الله بني إسرائيل بموسى (عليه السلام) من اضطهاد فرعون واستكباره، وخلصهم من نير العبودية والجهل والشرك، وأراهم من المعجزات الباهرات ما أراهم، حتى إذا تجاوزوا كل الصعاب والمراحل وحن وقت قطاف الثمرة قال لهم موسى (عليه السلام): ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (المائدة: ٢١).

فماذا كانت ردة فعلهم؟ انقسموا إلى قسمين، وأي قسمين؟ في طرف رجلاَن مؤمنان، وفي الطرف الآخر بقية بني إسرائيل! ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (المائدة: ٢٢-٢٣) فهل غيروا موقفهم؟

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (المائدة: ٢٤).

والنتيجة: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ، قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة: ٢٥-٢٦)».

• تملل المسلمين:

وهكذا عاش قسمٌ من المسلمين في أواخر حياة النبي (صلى الله عليه وآله) حالة من التملل والشعور بالإجهاد والثقل في الحركة حتى قال الله (عز وجل): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (التوبة: ٣٨)».

وجاء هذا بعد كل النصر الذي تحقق في المعارك الكبرى وفتح مكة وحنين والطائف، والانتقال من موقع الضعف إلى القوة المطلقة في الجزيرة العربية. وماذا سترتب على الموقف إن لم يستجيبوا؟ ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التوبة: ٣٩)».

بالطبع أنا لا أريد أن أقول أن المسألة سهلة، ولا أذكر هذا من باب التعالي.. فأكثر من ٧٠ غزوة وسريّة خلال ١٠ سنوات! الأمر ليس بالسهل.. سفر.. واحتمال الموت أو الإصابة بعاهة وترك مصدر الرزق ولربما يكون ذلك في موسم الحصاد كما في غزوة تبوك، والإنفاق من المال الخاص لتمويل

الخروج للقتال، وترك الأطفال، وغير ذلك.. الأمر صعب جداً. فعلاً مَنْ يتحمل مثل هذا الوضع الضاغط؟

ولكنهم في النهاية استجابوا ونفروا للقتال، ثم دخل الناس في دين الله أفواجاً، ثم انفتحت لهم كنوز الدنيا في المشرق والمغرب على مدى العقود اللاحقة حتى غدت دولة الإسلام القوة العظمى في العالم بأسره.

• السُّنَّة في الصراع:

فإذاً هذه هي سنة الحياة في الصراع بين الحق والباطل، والخلل ليس في القادة الذين يتحملون مسؤولياتهم على أكمل وجه، ويقدمون كل التضحيات طاعةً لله، بل الخلل في الناس حين يتخلّون عن مسؤولياتهم. وفعلاً، في ضمن ما كنت أبحث عنه في هذا الإطار إعداداً لهذه الخطبة، وجدت لأمر المؤمنين (عليه السلام) كلمةً يربط فيها بين تلك المشاهد التاريخية وبين ما كان يعانيه، وذلك حين دعا أنصاره وهو في النهروان بعد الانتصار على الخوارج للتوجه نحو الشام فتعذّروا له بأعذار شتى، فقال: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ فتلكثوا عليه وقالوا إن البرد شديد. فقال: إنهم يجدون البرد كما تجدون، فتلكثوا وأبوا، فقال: أف لكم! إنها سُنَّة جَرَتْ. ثم تلا قوله: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾).

وهكذا اضطر الإمام أن يعود إلى الكوفة عن غير رضا، وعسكر في النخيلة، قال ابن أبي الحديد: (أمر الناس أن يلزموا معسكرهم، ويوطنوا على الجهاد أنفسهم، وأن يُقلّوا زيارة النساء وأبنائهم حتى يسير بهم إلى عدوهم، و كان ذلك هو الرأي لو فعلوه. لكنهم لم يفعلوا وأقبلوا يتسللون ويدخلون الكوفة فتركوه (عليه السلام) و ما معه من الناس إلا رجال من وجوههم قليل! و بقي المعسكر خالياً! فلا مَن دخل الكوفة خرج إليه، ولا مَن أقام معه صبر، فلما رأى ذلك دخل الكوفة). فبماذا عوضهم الله عن علي؟ مائة سنة من حكم آل أمية!

• وعي السنن:

مرة أخرى تتبين لنا أهمية وعي سنن التاريخ في وعي الحاضر من خلال دراسة الماضي، لا بعنوان أن أحداثه تمثل مجموعة قصصية نراكم من خلالها معارفنا، أو نتسلّى بها في أوقات فراغنا، بل بعنوان أن الماضي مدرسة الحاضر الذي نفتح من خلاله عقولنا كي لا نكرر الخطأ الذي وقع فيه السابقون، ومن أجل أن نبحت عن نقاط القوة التي من خلالها حققوا ما حققوه في مواطن النصر والإعمار والتطوير، وليكن لنا في أمير المؤمنين (عليه السلام) أسوة وهو القائل: (إني وإن لم أكن قد عُمِرْتُ عُمَرَ مَنْ كان قبلي، فقد نظرتُ في أعمارهم، وفكرتُ في أخبارهم، وسرتُ في آثارهم حتّى عدتُ كأحدهم، بل كأنّي بما انتهى إليّ من أمورهم قد عُمِرْتُ مع أولهم إلى آخرهم، فعرفتُ صفو ذلك من كَدَرِهِ، ونفعه من ضرره).

من سيرة الإمام الكاظم

عن علي بن يقطين قال : (أنهي الخبر إلى أبي الحسن موسى بن جعفر (عليه السلام) وعنده جماعة من أهل بيته، بما عزم عليه موسى ابن المهدي في أمره) حفيد أبي جعفر المنصور، وأخوه هارون الرشيد (فقال لأهل بيته: ما تشيرون؟ قالوا: نرى أن تتباعد عنه، وأن تُغَيَّب شخصك منه، فإنه لا يُؤْمَنُ شرُّه، فتبسم أبو الحسن (عليه السلام) ثم قال :

زعمت سخينة أن ستغلب ربها وليغلب مغالب الغلاب

«سخينة : لقب قريش ، لأنها كانت تعاب بأكل السخينة ، وهي طعام يتخذ من الدقيق ، وإنما يأكلونها في شدة الدهر وغلاء السعر» ثم رفع (عليه السلام) يده إلى السماء فقال : اللهم كم من عدو شَحَذَ لي ظُبَّةَ مَدْيَتِهِ «الظبة: الحد» وأرهفَ لي شَبَاةَ حَدِّهِ «سَتَنَ حَدِّهِ» وداف «خلط» لي قواتِلَ سُمومِهِ، ولم تنم عني عَيْنُ حِرَاسَتِهِ، فلما رأيتُ ضعفي عن احتمال الفوادر، وعجزني عن ملهمات الجوايح «الشدائد» صرفت عني ذلك بحولك وقوتك، لا بحولي وقوتي، فألقيته في الحفير الذي احتفره لي

خائباً مما أمله في دنياه، متباعداً مما رجاه في آخرته، فلك الحمد على ذلك قدر استحقاقك سيدي، اللهم فخذ به عزتك، وافلل حدّه عني بقدرتك، واجعل له شُغلاً فيما يليه، وعجزاً عمن يناويه، اللهم وأعدني عليه عدوياً حاضرة تكون من غيظي شفاءً، ومن حقي عليه وفاءً، وصلّ اللهم دعائي بالإجابة، وأنظم شكايتي بالتغيير، وعرفّه عما قليل ما وعدت الظالمين، وعرفني ما وعدت في إجابة المضطرين، إنك ذو الفضل العظيم، والمن الكريم. قال: ثم تفرّق القوم، فما اجتمعوا إلا لقراءة الكتاب الوارد عليه بموت موسى بن المهدي).

● ظلامه السجن:

لعل أبرز ما يتبادر عند الحديث عن الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) هو ظلامه حبسه في سجون العباسيين. وهنا أود أن أعلق من خلال نقطتين:

● النقطة الأولى:

ما يتداوله الناس وعلى بعض المنابر من أنه قضى في السجون قرابة ٣٥ سنة، كلام غير دقيق، فالإمام الكاظم (عليه السلام) عاش ٥٥ سنة، وبعملية حسابية بسيطة نخلص إلى أنه - بحسب هذا الادعاء - قد عاش ٢٠ سنة خارج السجون.. أي أنه قضى كل فترة إمامته في السجن، لأن الإمام الصادق (عليه السلام) استشهد وابنه الكاظم في العشرين من عمره المبارك.. وهذا غير سليم لجهات:



١- للإمام بعد أبيه الصادق (عليه السلام) دور علمي مشهود له وعلى مدى سنوات طويلة، ونقلت عنه مجالس عديدة ومناظرات، وقد قُدِّرَ عدد الذين أخذوا العلم عنه بثلاثمائة وتسعة عشر عالماً وفقهياً. قال ابن شهر آشوب: (كان أحمد بن حنبل إذا روى عنه قال: حدثني موسى بن جعفر، قال: حدثني أبي جعفر بن محمد، قال: حدثني أبي محمد بن علي، قال: حدثني أبي علي بن الحسين، قال: حدثني أبي الحسين بن علي، قال: حدثني أبي علي بن أبي طالب، قال: قال رسول الله. ثم قال أحمد: وهذا إسناد لو قرئ على المجنون لأفاق).

قال الشيخ باقر شريف القرشي: (احتفَّ به العلماء والرواة، لا يفارقونه، ولا يفترقون عنه، ويسجلون أحاديثه وأبحاثه وفتاواه، فقد روى السيد ابن طاووس أن أصحاب الإمام وخواصه كانوا يحضرون مجلسه ومعهم في

أكمامهم ألواح ابنوس لطاف وأميال فإذا نطق بكلمة أو أفتى في نازلة،
بادروا إلى تسجيل ذلك).

• مجالس العلم في السجون:

وقد بلغ من حاجة الناس إلى ما لديه من العلم أنه بقي مصدراً لهم حتى في فترة سجنه حين اعتُقل عام ١٧٩ هـ قبل استشهاده بأربع سنوات، وأودع في سجنٍ بالبصرة، فكان له من التأثير على سجنائه حتى أنه سمح له بالتواصل العلمي مع الآخرين عبر الرسائل، وهكذا حين انتقل إلى سجن السندي بن شاهك، فقد سمح لمعلم أولاده وهو موسى بن إبراهيم المروزي بأن يجالس الإمام وينهل منه فألف المروزي كتاباً مما سمعه من الإمام. ولذا من غير الإنصاف أن يُهمَل ويُشكَّك في هذا العطاء العلمي الكبير من أجل ذرف الدموع.

٢- للإمام جهود في مجال الأوقاف التي أراد من خلالها تحقيق أمرين: الأول الإنفاق المستدام في سبيل الله، والثاني كفاية ذريته والمنتسبين إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) في مواجهة الأحوال المتبدلة التي كانوا يُستهدفون من خلالها، ابتداءً من مسألة فذك مروراً بالعهد الأموي وانتهاءً بالعباسي.

ولبعض الباحثين المعاصرين من أهل المدينة اليوم دراسة في ذلك توصلوا من خلالها إلى الحجم الهائل لمشاريع الإمام الوقفية. من أوقافه أنه

وقف أرضاً عظيمة في المدينة يقدّر خراجها بأربعين ألف دينار سنوياً، قال :
(هذا ما تصدّق به موسى بن جعفر وهو حيّ صحيحُ البدن مختار صدقةً
بتّاً بتلاء) لا تُردُّ (لا مثنوية فيها، وقّف أرضه) وحدّد الأرض (على صُلبه
من أولاده الذكور والإناث، وعلى أن واليها يُخرج من غلاتها بعد عمارتها
ثلاثين عدّقاً لمساكين القرية) والعِدَقُ عنقود النخلة وقذوها.
٣- للإمام من الذرية ما بين ٣٣ إلى ٣٨ من الذكور والإناث، فكيف
يتناسب هذا مع سجنه بالمدة المذكورة؟

• لئلا نَظلم الإمام :

في نهاية هذه النقطة أؤكد على أنني لا أريد انتقاص ظلامة الإمام موسى
ابن جعفر (عليه السلام) في سجنه، فسجن الإمام ولو لسويعات يعد ظلماً
كبيراً، فكيف به إذا كان لمُدَى أربع أو خمس سنوات وبظروف صعبة
جداً؟! ولكن من الخطأ أن نتعامل مع هذه الظلامة على حساب الإنجازات
التي حققها الإمام خلال ٣٠ سنة من إمامته خارج السجن .

• النقطة الثانية :

البعض يتصور أن الدعاء عند الشدائد يعني ترديد كلمة سحرية يتحقق
من خلالها المراد، على طريقة (افتح يا سمسم)، ولذا يطلبون دعاءً إذا
قرئ أو كرّر تحقق المراد.

وهذا خطأ كبير في فهم حقيقة الدعاء واستجابته.. فالدعاء ليس

كلمات.. الدعاء توجه.. الدعاء طلب من المحتاج.. من قلبه.. من كل شعوره ووجدانه إلى الغني المطلق.. طلب مُرفق بإظهار التذلل والخضوع، وليس بطلاسم، ولا كلمات تُقال أحياناً حتى بلا فهم لمعناها، بل بلا توجه.

وهذا ما نجدّه ماثلاً في دعاء الإمام زين العابدين (عليه السلام) في الصحيفة السجادية والذي جاء بعنوان (إِذَا اعْتَدَى عَلَيْهِ أَوْ رَأَى مِنَ الظَّالِمِينَ مَا لَا يُحِبُّ) وهو يتحوّل في الأثناء من إظهار التذلل إلى الله والحاجة المطلقة إليه، إلى مدرسة في الإيمان والأخلاق والعمل الصالح، وفي الصبر على النوائب، والرضا بقضاء الله، وحسن الظن به، وطلب عفوه ورحمته، والتطلع إلى عطائه في الآخرة. هذه هي مدرسة الإسلام في الدعاء الذي يمثّل إشراقة الأمل عندما يُطبق ظلام اليأس، وتهجم الشدائد من كلّ جانب، فيتطلّع العبد الفقير إلى الله القويّ العزيز الذي لا يصلُ المخلوق إلى شيء من كنه عظّمته، ولا يعرف أبعاد مشيئته، فيخضع لإرادة خالقه، في استجابة الدعاء، أو في نيله ثواب الصبر رضاً بالقضاء.

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مَوْلَايَ يَا أَبَا إِبْرَاهِيمَ مُوسَى بْنَ جَعْفَرٍ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْأَمَامُ الصَّالِحُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْأَمَامُ الزَّاهِدُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْأَمَامُ الْعَابِدُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْأَمَامُ السَّيِّدُ الرَّشِيدُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْمَقْتُولُ الشَّهِيدُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا بْنَ رَسُولِ اللَّهِ وَابْنَ وَصِيِّهِ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مَوْلَايَ مُوسَى بْنَ جَعْفَرٍ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

تقسيم دول المنطقة

IV

مع كل نزاع تشهده المنطقة، يعود الحديث من جديد عن دراسات ومؤامرات ووثائق حول تقسيم دول المنطقة، أو إعادة ترسيم حدود سايكس بيكو، وأمثال ذلك من تعبيرات مؤداها واحد وهو تفتيت المنطقة وإدخالها في المزيد من الصراعات البينية وتدمير بنيتها التحتية وإنهاك جيوشها واستنزاف مواردها المالية. فهل هذه مجرد فزاعة لإشغال الناس، أم حلم تعمل بعض الدوائر العالمية والإقليمية على تحقيقه على أرض الواقع وعلى نار هادئة؟ قد لا تتفق على سيناريو من السيناريوهات المعروضة عبر وسائل الإعلام، ولكن يبدو أن الأمر ليس مجرد فزاعة.. بل حقيقة.

• بداية تحقق الحلم الاستكباري:

بدأ هذا الحلم مع السودان وتحول إلى حقيقة. وهلل البعض لهذه الخطوة (الجريئة) على اعتبار أن السودان بلد كبير جداً، والحكومة فيه غير قادرة على إحلال السلم الأهلي، ويصعب تحقيق التنمية مادام الأمر بهذه الصورة، وأن مشروعاً بهذا الحجم سيُنهي النزاعات الداخلية، وليبدأ

السودان شمالاً وجنوباً بعد ذلك للتفرغ إلى التنمية. انقسم السودان
وبقي على حاله.. فلم ينتهِ النزاع بين شمال السودان وجنوبه، ولا تحقق
حلم التنمية.



• تقطيع أوصال :

واليوم، ومن خلال المشروع الاستخباراتي بدعم القوى التكفيرية وُضعت سوريا، وليبيا، والعراق، واليمن على طاولة التقطيع بسيناريوهات مختلفة يجمعها الأمر الواقع، وعنوان (دولة الخلافة) المزعومة.

• استفتاءات العنف :

وحتى أخذ رأي الشعوب فيها لم يتم كما يجري في العالم من خلال الاستفتاء الحر، كما شهدناه في أسكتلندا مثلاً.. فالمملكة المتحدة أيضاً مهددة بالتقسيم، ولكن الفرق بين الصورتين كالفرق بين الثريا والثرى.. فاستفتاء الشعوب في الدول العربية يتم اليوم من خلال قوة السلاح ووحشية التدمير وعنف التمييز الطائفي والعنصري.

كما نشهد الآن تحركاً كردياً في العراق بالسعي دولياً بغرض الحصول على تأييد للانفصال، ويا للعجب أن بعض الدوائر الشيعية باتت ترحّب بهذه الخطوة! فهل الأمر بعد هذا كله مجرد وهم وتلاعب بالمشاعر؟

• أول مخطط :

لعل أول مخطط مكتوب لتقسيم المنطقة وضعه المستشرق (برنارد لويس) وبإشراف مستشار الأمن القومي الأمريكي الأسبق (بريجنسكي)، ويقوم على تقسيم ١٨ دولة عربية إلى مجموعة دويلات صغيرة.

وأدعو القراء إلى الاطلاع على سيرة هذا البرفسور ذي المائة عام، وهو

بريطاني الأصل أمريكي الجنسية يهودي العقيدة ومتخصص في شؤون العلاقات الغربية الإسلامية، وصاحب الآراء (السلبية تجاه العرب والمسلمين)، وعلى تفاصيل هذا المشروع وكيف تم التعامل معه.

وفي سنة ٢٠٠٦ كتب الجنرال المتقاعد (رالف بيترز) مقالاً بعنوان (حدود الدم)، ونشر في مجلة (Armed Forces) أي القوات المسلحة، ويشتمل على مضمون مقرر حول ضرورة التمييز، ولم يترك الحديث حتى عن الإسماعيليين والنقشبنديين والبهايين والمسيحيين الذين يطالب (بإنصافهم) ضمن المخطط التقسيمي الجديد لتحقيق حلم (السلام والتنمية) في المنطقة، وللسماع لإسرائيل بأن تعيش وسط أربعين دولة معادية لها من دون أن توقع اتفاقية سلام!

• دراسة مسربة:

وقبل أقل من عام ذاع الكلام عن دراسة مسربة من البنتاغون تتحدث عن تقسيم دول المنطقة، وتشرف عليها ٤ وحدات بحث، تضم ١٢٠ خبيراً استراتيجياً سياسياً وعسكرياً، مع استهداف للجيش القوية في المنطقة من خلال استنزافها داخلياً وإقليمياً، مع الإشارة إلى أسماء شخصيات سياسية وعسكرية ورجال أعمال ولوبيات محددة داخل هذه الدول تقوم بمساعدتها بطرق مباشرة وغير مباشرة لتحقيق الهدف... فهل الحديث عن التقسيم المقبل مجرد ترثرة؟

• مسؤوليتنا أمام الله ورسوله:

سوف نقف غداً جميعاً بين يدي الله (عز وجل)، وسوف نلتقي برسول الله (صلى الله عليه وآله)، وسنُسأل عن رسالته كيف حفظناها في أنفسنا وفي ما حولنا، وسنُسأل عن أمانة هذه الأمة التي تمزقت من قبل وهي مُقبلة على المزيد من صور التمزق، كيف سعينا في طريق لَمْ شملها، والوقوف في وجه مخططات ومشاريع التقسيم التي تُبشّرنا بمستقبل واعد على مستوى السلام والتنمية، بينما لا تفوح منها سوى رائحة الدم، ولا تحمل في آفاقها سوى مشاهد الذبح وأهوال الحروب وأعمال التدمير الممنهجة والعشوائية. وإذا كنا كأفراد لا نملك قرارات كبيرة نحققها على أرض الواقع في هذا الإطار، فإننا نملك أن نكون على مستوى المسؤولية في التعامل مع كل ما يُراد له أن يزيد من الشحن الطائفي والعنصري والسياسي الذي يُثار عبر وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي.

وسنقف بين يدي الله وسنُسأل عن أمانة ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ «آل عمران: ١٠٣-١٠٤».

رحمة النبي و آله

عُرف العربي الجاهلي بقساوة القلب، وفي القرآن الكريم يطالعنا مشهد قتل الأبناء: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائُهُمْ﴾ (الأنعام: ١٣٧) «إما بتقديمهم كقرايين للآلهة، أو بالوآد الذي جعل أمراً محبباً درءً للنحس ووقايةً من العار، ليمثل ذلك واحداً من أبشع صور قساوة القلب عند الإنسان.

• من سيرة النبي الأكرم:

وفي خبر أنه (قَبْلَ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله) الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً، فقال الأقرع: إِنَّ لِي عَشْرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبِلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا! فنظر إليه رسول الله (صلى الله عليه وآله) ثم قال: مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرَحَمُ). وفي خبر آخر أن النبي (صلى الله عليه وآله) رأى صحابياً دائم الحزن، فلما استفسر منه السبب قال: (إني أذنبت ذنباً في الجاهلية فأخاف ألا يغفره الله لي وإن أسلمت! فقال له: أخبرني

عن ذنبك؟ فقال: يا رسول الله، إني كنت من الذين يقتلون بناتهم، فولدت لي بنت فتشفت إلي امرأتي أن أتركها، فتركها حتى كبرت وأدركت، وصارت من أجمل النساء، فخطبوها، فدخلتني الحمية، ولم يتحمل قلبي أن أزوجهها، أو أتركها في البيت بغير زوج، فقلت للمرأة إني أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا وكذا في زيارة أقبائي فأبعثها معي، فسرت بذلك، وزينتها بالثياب والحلي، وأخذت علي المواثيق ألا أخونها، فذهبت إلى رأس بئر فنظرت في البئر، ففطنت الجارية أنني أريد أن ألقها في البئر، فالتزمتني وجعلت تبكي وتقول: يا أبت إيش تريد أن تفعل بي؟ فرحمتها، ثم نظرت في البئر فدخلت علي الحمية، ثم التزمتني وجعلت تقول: يا أبت لا تضيع أمانة أُمي! فجعلت مرة أنظر في البئر ومرة أنظر إليها فأرحمها، حتى غلبني الشيطان فأخذتها وألقيتها في البئر منكوسة، وهي تنادي في البئر: يا أبت قتلتنني؟ ومكثت هناك حتى انقطع صوتها فرجعت. فبكى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأصحابه، وقال: لو أمرت أن أعاقب أحداً بما فعل في الجاهلية لعاقبتك).

● تربية نبوية فريدة:

مثل هذه النماذج استطاع النبي (صلى الله عليه وآله) أن يدخل عليها التغيير، ويخرجها من القسوة إلى الرحمة، بل ربّاهم على أن يكونوا مرهفي الحس تجاه هذه المسألة.

ومن أمثلة ذلك قول النبي (صلى الله عليه وآله) في غزوة خيبر حين مرّ بلال بصفيّة وابنة عم لها على قتلى اليهود: (يا بلال، أنزعت منك الرحمة حتى تمر بامرأتين على قتلاهما؟).

ولم يقتصر الأمر على الإنسان، ففي خبر أن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرّب ثم خرج، وإذا كلب يلهث يأكل الثرى) أي التراب (من العطش، فقال: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خُفّه ماءً ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له. قالوا: يا رسول الله إن لنا في البهائم لأجراً؟ قال: في كل كبد رطبة أجر).

• رحمة آل النبي:

وقد ورث أهل بيت النبي (عليهم السلام) هذه الروحانية الرحيمة والرؤوفة عنه (صلى الله عليه وآله)، فكانوا يتألمون لحاجة الناس، فما يهنأ لهم الفراش ليلاً، ولم يُبعدهم التهجد في السحر عن البحث عن المحتاجين، يحملون الزاد إليهم على ظهورهم، متسترين بالظلمة، متنكرين باللثام، ليبقى العطاء خالصاً لوجه الله.. هكذا روي عن علي والسجاد والكاظم (عليه السلام).

وما كان الإمام الحسن المجتبي (عليه السلام) ليهنأ بطعامه حتى يدعو الفقراء إلى مائدته يُطعمهم بيديه.

وللإمام الحسين (عليه السلام) موقف عظيم قبيل كربلاء يذكرنا برحمة



جده حين أمر بسقي جيش العدو، ثم وقف يسقيهم وخیولهم بنفسه!
 روى المزي في (تهذيب الكمال) في صفة الإمام الكاظم (عليه السلام):
 (وَكَانَ يبلغه عن الرجل أنه يؤذيه، فيبعث إليه بَصْرَةً فيها ألف دينار، وَكَانَ
 يَصِرُّ الصَّرُّ ثلاث مائة دينار، وأربع مائة دينار، ومئتي دينار، ثم يُقسمها
 بالمدينة. وَكَانَ مثْلُ صَرِّ مُوسَى بن جعفر) يُضرب بها المثل (إِذَا جاءت
 الإنسان الصرة، فقد استغنى) .

ولم يقتصر الأمر على الأئمة من آل البيت (عليهم السلام)، بل ورثت ذريته
 هذه الرحمة، ففي مقاتل الطالبين أن محمد ابن إبراهيم طباطبا الحسيني
 (بيناهو في بعض الأيام يشي في بعض طريق الكوفة إذ نظر إلى عجوز تتبعُ

أَحْمَالُ الرُّطْبِ، فَتَلْقُطُ مَا يَسْقُطُ مِنْهَا، فَتَجْمَعُهُ فِي كِسَاءٍ عَلَيْهَا رِثَ، فَسَأَلَهَا عَمَّا تَصْنَعُ بِذَلِكَ. فَقَالَتْ: إِنِّي امْرَأَةٌ لَا رَجُلَ لِي يَقُومُ بِمَوْتِي، وَلِي بَنَاتٌ لَا يَعُدْنَ عَلَيَّ أَنْفُسَهُنَّ بِشَيْءٍ، فَأَنَا أَتَّبِعُ هَذَا مِنَ الطَّرِيقِ وَاتَّقَوْتُهُ أَنَا وَوُلْدِي! فَبَكَى بِكَاءٍ شَدِيداً وَقَالَ: أَنْتِ - وَاللَّهِ - وَأَشْبَاهُكَ تُخْرِجُونِي غَدًا حَتَّى يُسْفِكَ دَمِي). وَفَعَلًا خَرَجَ ثَائِرًا عَلَى الْمَأْمُونِ الْعَبَّاسِيِّ وَمَاتَ شَهِيدًا.

• الخوارج يقتلعون الرحمة:

هذه الرحمة التي زرعها النبي (صلى الله عليه وآله) في النفوس، اقتلعها الأمويون والخوارج قلعاً، فمُسخت شخصية المسلمين.

قال عبود الشالجي في مقدمة (موسوعة العذاب) المكوّنة من سبعة أجزاء واشتملت على أبشع صور التعذيب التي جرت في العهد الأموي فما بعد مما لا يمكن أن يتخيّله إنسان لولا أنها مثبتة في مصادر التاريخ، قال: (ولما تسلّط الأمويون على الحكم، تغيّر الأمر عما كان عليه في عهد الخلفاء الراشدين، فظلم بعضهم الناس، وسلّطوا عليهم عمالاً من الظالمين، وأول مَنْ سلّط على الناس من هؤلاء الظالمين زياد بن أبيه، فعذب الناس ودفنهم وهم أحياء، وبنى عليهم الحيطان، وقطع أطراف النساء).

ثم تحدث عن العباسيين الذين: (تجاوزوا الأحياء منهم إلى الأموات، فنبشوا قبورهم وأخرجوا رِثَمَهُمْ، ضربوها بالسياط وأحرقوها بالنار!).

• جرائم التكفيريين :

واليوم نشهد جرائمَ ذُرِيَةِ أولئك القوم من التكفيريين الذين انتزعت الرحمةُ من قلوبهم، فأشبهوهم في فعَالِهِم الإرهابيَّةَ.. ومَن شابه أباه فما ظَلَمَ.. وإن تعَجَّبَ لهؤلاء، فعجباً للمغتريِّين بهم، ممن يحملون في قلوبهم المودَّةَ لهم، والتبريرَ لو حشيتهم، والشرعنةَ لأفعالهم الخسيصة، كيف مُسَخَّت في عقولهم ونفوسهم مفاهيمُ الرحمة في الإسلام، وصورُ الرأفة في شخصية النبي (صلى الله عليه وآله)، وهم ويكرِّرون في الصلاة كل يوم ولعدة مرات: (بسم الله الرحمن الرحيم)، وقد روي عن النبي الأكرم قوله (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (مَن أَحَبَّ قوماً حُشِرَ معهم، ومَن أَحَبَّ عَمَلَ قومٍ أَشْرَكَ في عَمَلِهِم)!

ولكنه التعصب الأعمى الذي يملأ القلوب حقداً، ويُعمي البصيرة عن الحقيقة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم إذ صار الإسلام دينُ الرحمة قرينَ الإرهاب في عقولِ الناس.

ومن هنا فإن من مسؤوليتنا أن نقدِّم هذه الصور المذهلة في مدرسة أهل البيت (عليه السلام) لنملأ الفراغ الذي خلَّفته تلك الممارسات الوحشية في فهم الإسلام، ولنُخرس الألسنة التي استطالت بالإساءة إليها من خلال ممارساتنا اللامسؤولة وانسياقنا وراء الطرح الخرافي والاستفزازي الذي لم يُعدَّ علينا وعلى مدرسة أهل البيت إلا بالسوء.

مناهج التكفير

هناك طرق عديدة للتعليم ولايصال المعلومة إلى المتعلمين، منها أسلوب التلقين، والتحفيز، والتجربة، والقصة، والحوار، والتفكير النقدي، إلخ. ومن بين طرق التعليم أسلوب الأحجية Puzzle. قطع متناثرة من المعلومات لها علاقة ببعضها البعض، ويُعطى المجال للتلميذ كي يقارب بينها في محاولة لإكمال الصورة في ذهنه والوصول إلى نتائج معينة. وهناك أسلوب المنطق الأرسطي حيث تكون هناك قضية كبرى وصغرى ثم نتيجة، ومثال ذلك قولنا: كل مسكر يحرم شربه (كبرى) وهذا مسكر (صغرى)، والنتيجة: هذا يحرم شربه.

• منهج التربية الإسلامية:

ما تنتهجه بعض كتب مادة التربية الإسلامية في دولة الكويت هو تماماً أسلوب الأحجية والمنطق الأرسطي. فكلما ارتفعت الأصوات بضرورة تعديل هذه الكتب، قالوا: أين الخلل؟ لا يوجد هناك تكفير ولا تحريض.

وعندما نتحدث في أكثر من مرة عن منهج التربية الإسلامية في الوزارة فإنما يأتي ذلك لحساسية الأمر، فلو كنا نتحدث عن كتاب ما يُباع في المكتبات، فالوضع سيكون مختلفاً.

نحن نتحدث عن منهج رسمي، يعني هذا هو المنهج الذي تتبناه الدولة، وتقدمه لأبنائها على أن هذا هو الدين، هذا هو المقدس، هذا هو الذي يجب أن يلتزم به كل طالب، وأن يعمل به كل تلميذ.

فماذا تقول هذه الكتب؟ فلنأخذ أمثلة من كتاب الصف السادس وكتاب الصف العاشر.

• كتاب الصف السادس:

في الدرس الثالث من الجزء الأول من منهج التربية الإسلامية للصف السادس ما يلي: (إنَّ نطق كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» يستلزم من العبد الاعتقاد الجازم بها، والعمل بمقتضاها، واجتناب ما يناقضها. فمن نطق بها من غير اعتقاد فهو منافق، ومن نطق بها ووقع بما يخالفها من أعمال الشرك، فهو مشرك كافر. وقد حارب أبوبكر الصديق «رضي الله عنه» مانعي الزكاة وقاتلهم برغم أنهم كانوا يقولون لا إله إلا الله، إلا أنهم امتنعوا عن الالتزام بما تقتضيه كلمة التوحيد، وعطلوا ركناً من أركان الإسلام، وهو إخراج الزكاة). هنا لا أريد أن أدخل في الرد التفصيلي على ما سبق، ولكن أشير بسرعة إلى أمرين:

١- أن القرآن أنزل سورة كاملة في المنافقين وآيات بالعشرات تحدث عنهم وفضحتهم، وكان أكثرهم معروفين، ومع هذا لم يقاتلهم رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فكيف تُقدّم الفكرة السابقة بهذه الصورة الساذجة لأطفال في العاشرة تقريباً؟

٢- علام يدل حديث أسامة بن زيد الوارد في صحيح البخاري حيث قتل مشركاً محارباً بعد أن قال لا إله إلا الله، فقال له النبي «صلى الله عليه وآله»: (أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟ قلت: كان متعوذاً. فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم)؟ أليس يدل على حقن الدم بدلالة الظاهر؟

ثم يقدّم الدرس العنوان التالي: (ما يضاد التوحيد ويخدشه من الأقوال والأعمال: ... الذبح لغير الله «تعالى») ومن المتهّم بهذا؟ المسلمون الشيعة... بالطبع هم لا يفعلون ذلك.. ولكن هناك من يبهتهم ويفتري عليهم بهذا الشأن.. والنتيجة؟ الشيعة مشركون.. يجوز قتلهم رغم أنهم يقولون لا إله إلا الله.

• كتاب الصف العاشر:

في منهج التربية الإسلامية للصف العاشر كان مسطوراً ما يلي: (الشرك الأكبر دعاء غير الله «عزوجل» والاستعانة به سواء كان المدعو به حياً أو ميتاً، نبياً أو صالحاً، يعتبر نوعاً من الشرك ويتنافى مع توحيد الله «عزوجل».....)

ثم يذكر أصناف الشرك الظاهر ومنها: (ما يفعله العامة من تقبيل أعتاب القبور والأضرحة والاستعانة بها والطواف حولها وتعظيمها..) ومن المتهم بهذا كله؟ بالطبع هم المسلمون الشيعة.

ثم يقول: (الفرق بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر وأثره) ويقدم جدولاً كتب فيه: (الشرك الأكبر: يخرج من ملة الإسلام.... العقوبة: يبيع دمه وماله ويُخلد صاحبه في النار).

• بعد التعديل:

بعد أن تعالت الأصوات على هذا المضمون تم إدخال تعديل بحيث استبدلت عبارة (يبيع دمه وماله) بعبارة: (يوجب المعادة وقطع الموالاة) ولا أدري كيف سيفهم طالب الصف العاشر عبارة (يوجب المعادة)؟ يعني تحوّل الأمر من خطاب التحريض على القتل إلى خطاب كراهية واستعداد. وهذه المرة أضيف بند آخر إلى شرك الأفعال وهو: (سنّ القوانين التي تضاهي حكم الله تعالى ويشرّعها للناس ويلزمهم بالتحاكم إليها). أليس المقصود بها مجلس الأمة والحكومة والحكم ككل؟ فالدستور واضح في هذا الشأن، والتحاكم في قضائنا ليس مبنياً على القضاء الشرعي الإسلامي.. هذه المرة التحريض على ماذا؟

• تصريح وزير التربية:

نعم، طالعنا الإعلام أن السيد وزير التربية قد عقد العزم على تعديل



هذه المناهج، ثم قالوا أنه تراجع بسبب ضغوط نيابية، ثم نُقل عنه التصريح بأن الذين يتبنّون الفكر التكفيري من أساتذة الجامعة هم اثنان فقط.. فما الإجراء الذي اتُخذ بحقهم؟ هذا في الجامعة، فماذا عن العشرات من المعلمين الذين يحملون الفكر التكفيري وتُقدّم لهم مادة دسمة في الكتب الدراسية.. أنتظر حتى يقع الفأس في الرأس؟

• جريمة القديح:

في الأسبوع الماضي وفي أثناء حديثي عن جرائم التكفيريين، وعن تعاطف الجبهة والمتعصبين معهم، وعن الخلفية الثقافية والامتداد التاريخي لذلك، اهتزّ العالم لجريمة أخرى نالت هذه المرة المصلين يوم الجمعة في مسجد القديح في القطيف. لهم منا كل العزاء والمواساة.. والموت حق،

فهنيئاً لمن كانت خاتمته أن يُقتل مظلوماً في المسجد وأثناء الصلاة.

ويا للسخرية أن يقف مسؤول عن الأمن على رأس الإرهابي بعد الجريمة ويترحم عليه أمام جموع المنكوبين! هذا نتاج تربية ولم يأت من فراغ، وهذا نموذج التعاطف الخطر الذي كنت أتحدث عنه في الأسبوع الماضي. إن جريمة القديح لم تأت من فراغ، بل هي نتاج هذه التربية السقيمة، وتسميم عقول الأطفال والشباب بهذه الأفكار ومن خلال مناهج التربية الإسلامية الرسمية في البلاد، وهي لن تثمر إلا هكذا نتائج. وهل يكفي النزوع إلى الحل الأمني؟ هل ننتظر في الكويت إلى أن تتكرر جريمة الدالوة والقديح كي ترتفع بعض الأصوات بالشجب والاستنكار أو أن يتم اتخاذ خطوة هنا أو هناك؟

إن الخلل ليس في الإسلام، بل في الجهل الذي يضيّق الآفاق، وفي التعصب الذي يُغلق العقول. ألم يحن للسلفية أن تفكر بجديّة في عقد مراجعة شاملة لمتبنياتها؟ بل ألم يحن لكل الإسلاميين أن يقوموا بخطوة مماثلة؟ كل المذاهب والأحزاب الإسلامية بحاجة إلى نقد ذاتي عميق وشفاف وصادق.. وهذا ليس بعيب، فالأمور وصلت إلى حد خطر جداً، وإلى مستوى غير مسبوق.

لقد كابرّت الليبرالية في أوروبا حتى حصدت الدمار الرهيب الناتج عن الحرب العالمية الثانية، وحينها لجأت إلى مراجعة نقدية شاملة لمتبنياتها..

فهل نريد دماراً بهذا الحجم حتى نستفيق؟

الإسلام الليبرالي

عن أمير المؤمنين «عليه السلام»: (لأنسبَ اليوم الإسلام نسبةً لم ينسبه أحدٌ قبلي: الإسلام هو التسليم) أي الانقياد والخضوع التام لله كما قال «عز وجل»: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ﴾ «البقرة: ١٣١» (والتسليم هو اليقين) فالتسليم ناتج عن اليقين بوحداية الله على المستوى الفكري (واليقين هو التصديق) بما أنزل الله في كتبه على رسله (والتصديق هو الإقرار) باللسان، فلا يكفي أن تُبقي ذلك التصديق في قلبك (والإقرار هو الأداء) أي أداء المسؤولية، فلا يكفي القول والكلام (والأداء هو العمل) حيث لا ازدواجية بين القول والعمل بل تطابق، ولذا فهو يأتي بما أمر به وينتهي عما نُهي عنه. هذه هي حقيقة الإسلام كما بيّنها أمير المؤمنين «عليه السلام»، على مستوى العقل والقول والعمل.

• مفهوم الليبرالية:

في عالمنا الإسلامي شاعت خلال العقدين الماضيين الدعوة إلى تبني

(الإسلام الليبرالي)، وجَذَبَ هذا العنوان مجاميع من شبابنا فدعوا إليه، كما تبنّى آخرون بعض مضامين هذه الدعوة وإن لم يتبنّوا الاسم في حد ذاته. وحتى نفهم المراد من هذا المصطلح وماهية هذه الدعوة ومتبنياتها، بل ومدى إمكانية تحقق هذه التركيبة من إسلام وليبرالية، لابد أن نسلط الضوء بدايةً على مفهوم وتاريخ الليبرالية.

تأتي كلمة ليبرالية من كلمة (ليبرالس) اللاتينية والتي تعني (حر). وقد ظهرت الليبرالية في أوروبا قبل ثلاثة أو أربعة قرون مضت كردة فعل على السلطة المطلقة للحكام، وفساد الكنيسة، وجشع الإقطاعيين، ثم أصبحت بمرور الزمان فلسفةً وتياراً سياسياً واسعاً.

تقدس الفرد هو محور الليبرالية، والفرد هو المركز من كل القضايا، وتحريره من كل القيود والسلطات هو الغاية. فالفرد يولد حراً، وله الحق في أن يحيا حراً كاملاً الاختيار، يختار ما يشاء من معتقد وطريقة حياة ويضع لنفسه ما يشاء من غايات، ومن خلال هذه الغايات يكون أسلوبه في الحياة.

• البديل عن الإله:

في الموسوعة الأمريكية الأكاديمية: (إن النظام الليبرالي الجديد بدأ يضع الإنسان بدلاً من الإله في وسط الأشياء، فالناس بعقولهم المفكرة يمكنهم أن يفهموا كل شئ، ويمكنهم أن يطوروا أنفسهم ومجتمعاتهم).

بالطبع هذا لا يعني أنها تنفي وجود الإله، ولكنها لا تمنع أن يكون الفرد ملحدًا، فهذه حريته.. وإذا آمن بالله فإنها تدعوه إلى أن يتحرر من سلطانه! وقد طرأت تغيرات على فلسفة الليبرالية، ولكنها احتفظت بهذه الرؤية.

• تدرّج وخطوات:

تبين من خلال ما سبق أن الحرية في الليبرالية والدعوة لمركزية الإنسان تقوم على التحرر من النزعة الدينية، ففي الأديان قيود، وسلطات، وولاية لله وللأنبياء ولخلفائه.. أما الليبرالية فتدعو إلى رفض كل سلطة، والتحرر من كل تكليف.. وبعبارة أوضح فإن الليبرالية تدعو إلى التحرر من مركزية الإله في الوجود.

في عالمنا الإسلامي - وأتكلم خاصة عن وسطنا الشيعي - تدرجت الدعوة إلى متبنيات الإسلام الليبرالي.

بدأت بالدعوة إلى إصلاح المؤسسات الدينية، ورفض سلطة العلماء (الكهنوت)، والدعوة إلى قراءات جديدة للنص الديني، وإلى ضرورة التفريق بين الدين وبين فهم العلماء الماضين للدين.. وهو كلام في ظاهره ومجمله مقبول، بل إن بعض بنوده ضرورة حتمية.

ثم خطا دعاة الإسلام الليبرالي خطوة أخرى، حيث اعتبروا أن النضج والتطور الإنساني بلغ مستوى بحيث لا يحتاج معه الفرد إلى الالتزام بتشريعات محدّدة على المستوى الشخصي.

وعليه، فلم تعد هناك حاجة إلى شيء اسمه حرام وواجب. الحرام ما تختار أنت أن لا تفعله.. ولو غيّرت رأيك في أية لحظة وأردت فعله فهذا شأنك، لأنك حر. وهكذا بالنسبة إلى الواجب.. وفي كل الأحوال لا أحد يحاسبك على الفعل والترك ما دمت لم تلحق الضرر بالآخرين ولم تسيء إلى حريتهم.

إذا أردت أن تصلي فهذا شأنك، ولكنك لا تصلي لأن الصلاة واجبة ومفروضة، بل لأنها شيء محبب إلى نفسك، أو ترى لها فائدة ما، فلو انتفى ذلك كله، فلك أن تترك الصلاة! وعلى هذا فقس سائر التكاليف. إذا أردت أن تزني مع امرأة بالغة رشيدة غير متزوجة، وقد وافقتك على ذلك، فهذا شأنك.. وعلى هذا فقس.

• نفي الوحي:

ثم تقدّموا خطوة أخرى باتجاه نفي الوحي، فقالوا أن القرآن ليس مُنزلاً من عند الله، بل هو نتاج بشري، ولذا فلا قدسية للقرآن، ولا سلطة له، وتشريعاته ومفاهيمه لم تعدّ صالحة لزماننا!

من المنطقي أن تصدر هذه الأفكار من دعاة الليبرالية، لأن محور الليبرالية فك الإنسان من أية سلطة وولاية بما في ذلك ولاية الله، ولكن ليس من المنطقي أن يصدّق أحد بوجود تركيبة باسم (الإسلام الليبرالي).

فالإسلام قائم على العبودية المطلقة لله: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي

وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٢-١٦٣﴾، والطاعة المطلقة لله والرسول وأولي الأمر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ «النساء: ٥٩»، وانعكاس كل ذلك قولاً وعملاً كما جاء في كلمة أمير المؤمنين «عليه السلام».. فكيف يُتصور اجتماع المتعارضين؟

ولذا صرّحوا - وبكل وضوح - بأننا لم نعد بحاجة إلى إمام.. لا ليقودنا سياسياً، ولا ليقدم لنا الفقه، فرفضوا فكرة ولاية الأئمة «عليهم السلام»، واعتبروا أن ولايتهم - بل حتى ولاية النبي «صلى الله عليه وآله» - كانت حاجة بشرية مؤقتة في حدود زمنية، وقد انتهت، فقد تطوّر الإنسان، وحلّ عقله محلّ كلّ السلطات.

• رفض المهدوية:

والفكرة السابقة دفعتهم إلى إنكار القضية المهدوية، لأنها تتعارض في الصميم مع رؤيتهم إلى تطور الإنسان وحتمية تحرره من كل سلطة وحاكمة، بما في ذلك ولاية وحاكمة الإمام المنتظر.

ثم قالوا إن النبي «صلى الله عليه وآله» الذي هو أفضل من المهدي «عليه السلام» لم يستطع أن يزيل الظلم والجور، ولم ينجح في تحقيق العدل في مجتمع

صغير، فكيف يمكن للمهدي أن يحقق ذلك في الكرة الأرضية بأجمعها مع وجود ولاية وقضاة ورجال شرطة وموظفين وغيرهم... وكلهم غير معصومين .

● حقيقة العدالة المهدوية:

إن تشكيك دعاة الإسلام الليبرالي في دولة العدل المنتظرة يقوم على فهم خاطئ، فإقامتها لا تعني عدم صدور ظلم من أحد، ولا تعني تحوّل المسؤولين والشعوب إلى ملائكة، بل تعني وجود سلطة تؤمن إيماناً حقيقياً بالعدل، ولديها من التشريعات والأدوات ما يمكنها من بسط العدل وإعادة الحقوق لأصحابها، ومحاسبة المخطئين، والانطلاق تدريجياً من خلال القواعد الإيمانية والأساليب التربوية والروحية والأخلاقية الكفيلة بتحقيق التغيير نحو العدالة المنشودة التي ستملأ الأرض وتحاسب المخطئين وتعمل على صناعة جيل يدرك قيمة العدل والنظام والقانون. ولقد استطاع الغرب الأوروبي تحقيق قفزة نوعية على هذا المستوى بعد الدمار المهول الذي لحقه في الحربين العالميتين، فتوافقت الحكومات والشعوب على صياغة كياناتهم بما يحقق لهم الأمن والرخاء والعدالة التي ينشدونها.. أفلا يمكن تصوّر تحقق مشروع دولة العدل المهدوية في مثل تلك الظروف، ولكن على مستوى أوسع نطاقاً وبتسديد من رب العالمين؟

هل انتفت الحاجة إلى العبادة ؟ ٢١

هل العبادة مطلبٌ أصيلٌ في الإسلام، أم أنها لبلوغ غايات محددة، ومتى ما تحققت انتفت الحاجة إلى العبادة وتحولت إلى شيء اختياري؟ وبعبارة أخرى: لو وصل الإنسان إلى مراتب متقدمة من الصلاح، أيبقى مأموراً بالعبادة؟

ولو حققها من خلال التربية مثلاً - دون عبادة - كما نشهد ذلك في بعض البلدان الراقية في التزام القانون والنظام والوفاء بالعهود واحترام الوقت وأمثال ذلك، أفيبقى مأموراً بالعبادة؟

• إصلاح النفس:

أولاً: لاشك أن إصلاح النفس والعمل الصالح غاية للعبادة، إلا أنها لا تمثل العلة الكاملة حتى نقول أنه متى ما تحققت، انتفت الحاجة إلى العبادة.

لاحظ كيف قدّم الإمام علي «عليه السلام» بعض الأبعاد المرجوة من

العبادة في الخطبة القاصعة حيث قال: (وَعَنْ ذَلِكَ مَا حَرَسَ اللَّهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَوَاتِ وَالزَّكَّوَاتِ وَمُجَاهَدَةِ الصِّيَامِ فِي الْأَيَّامِ الْمَقْرُوضَاتِ، تَسْكِينًا لِأَطْرَافِهِمْ، وَتَخْشِيعًا لِأَبْصَارِهِمْ وَتَذْلِيلًا لِنُفُوسِهِمْ وَتَخْفِيزًا لِقُلُوبِهِمْ وَإِذْهَابًا لِلْخِيَلِ عَنْهُمْ، وَلَمَّا فِي ذَلِكَ مِنْ تَغْفِيرِ عَتَاكِ الْوُجُوهِ بِالشَّرَابِ تَوَاضَعًا وَالتَّصَاقِ كَرَائِمِ الْجَوَارِحِ بِالْأَرْضِ تَصَاغُرًا وَلِحُوقِ الْبُطُونِ بِالْمَتُونِ مِنَ الصِّيَامِ تَذَلُّلاً).

• الخضوع لله غاية:

فمن غايات العبادة أن يعيش المسلم حالة العبودية والخضوع لله «عز وجل» وجزء كبير من مشكلة هؤلاء الذين يقولون نكتفي بالعقل، ولم تعد لنا حاجة إلى ولاية أحد، ولا إلى شريعة، بما في ذلك ولاية الله وشريعته، كما لم نعد بحاجة إلى عبادة، هو انتفاخ الأنا النوعي أمام الله ورسوله وأوليائه. ومن هنا تأتي العبادة لتذكّر الإنسان بحقيقته أمام عظمة الله «عز وجل» لكي لا يقع في هذا الانحراف الكبير، وهو ما نبّه عليه الإمام علي بن موسى الرضا «عليه السلام» في حديثه عن غايات الصلاة: (... مع ما فيه من الإيجاب والمداومة على ذكر الله «عز وجل» بالليل والنهار، لئلا ينسى العبد سيده ومدبره وخالقه فيبطر ويطغى).

• ثواب الآخرة غاية:

ثم هناك غاية ثالثة من العبادة، وهي التمهيد لرفيع الدرجات في الآخرة،

ففي الآخرة محاسبة على المعاصي، وتنافس على مراتب الجنة.. ومن عوامل العفو عن المعصية والارتقاء في المراتب: الإقبال على العبادة. ولذا قال علي «عليه السلام» في الخطبة القاصعة: (وَلِيَجْعَلَ ذَلِكَ أَبْوَاباً فَتْحاً إِلَى فَضْلِهِ، وَأَسْبَاباً ذُلَّلاً لِعَفْوِهِ).

• الشخصية الصالحة:

ثانياً: العبادة الواعية تخلق شخصية صالحة انطلاقاً من الذات، أي من تقوى النفس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ «البقرة: ١٨٣» لا من خلال رقابة الآخرين عليه، ولا من خلال قوة القانون، بحيث أنه متى ما غابت الرقابة وغاب القانون لم يجد مانعاً من فعل ما كان يمتنع عنه.. وهذا فارق جوهري بين الحالتين.

• مفردات أخلاقية عديدة:

ثالثاً: التزام القانون واحترام النظام والوفاء بالعهود وأمثال ذلك ليست الصورة الكاملة للشخصية الصالحة.. نعم هي من مصاديقه الكبرى، إلا أن هناك قائمة أخرى من الأخلاق الفردية والاجتماعية والأعمال الصالحة إنما تتحقق من خلال التربية الإيمانية، والتربية الإيمانية رافدها الأساسي العبادة.

فبر الوالدين، وصلة الأرحام، وإغاثة الملهوف، والتواضع، والطمأنينة



النفسية، والرضا بقضاء الله، وعفة البطن والفرج، والصبر والحلم، والكرم والرفق وغيرها، تمثل قائمة طويلة من مكوّنات الشخصية الصالحة التي لا تتحقق إلا من خلال التربية المتكاملة التي يعمل الإسلام على توفيرها بوسائل متعددة، من بينها العبادة.

• شكر الله:

رابعاً: العبادة تعبير عن شكر الله «عز وجل» بما هو مُنعم.. فلو أعانك أحدهم على قضاء حاجة كرّرت له الشكر مرات ومرات، وحفظت له هذا الجميل في قلبك.. فكيف بمن نعمة لا تتوقف لحظة واحدة؟

في دعاء الإمام زين العابدين «عليه السلام» في الصحيفة السجادية بعنوان

(إذا اعترف بالتقصير عن تأدية الشكر): (اللَّهُمَّ إِنَّ أَحَدًا لَا يَبْلُغُ مِنْ شُكْرِكَ غَايَةً، إِلَّا حَصَلَ عَلَيْهِ مِنْ إِحْسَانِكَ مَا يُلْزِمُهُ شُكْرًا، وَلَا يَبْلُغُ مَبْلَغًا مِنْ طَاعَتِكَ وَإِنْ اجْتَهِدَ، إِلَّا كَانَ مُقْصِرًا دُونَ اسْتِحْقَاقِكَ بِفَضْلِكَ، فَأَشْكُرُ عِبَادَكَ عَاجِزٌ عَنْ شُكْرِكَ، وَأَعْبُدُهُمْ مُقْصِرٌ عَنْ طَاعَتِكَ).

• رفض سلطة الطاغوت:

خامساً: فإنَّ لعبادة الله «عزوجل» عن وعي دوراً في إنقاذ الإنسان من الخضوع للطاغوت وطاعة المستكبرين، قال «عزوجل»: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ «النحل: ٣٦»، وكلُّ مَنْ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَهُوَ طَاغُوتٌ، وكلُّ مَنْ يَطْغَى عَلَى الْعِبَادِ فَهُوَ طَاغُوتٌ.

• مطلب أصيل:

إن عبادة الله «عزوجل» ضرورة حتمية ومطلب أصيل لا تتوقف غاياته على مشارف صلاح النفس، بل تبقى متناغمة مع استمرارية وجود الإنسان في دار الابتلاء.. وما الحديث عن انتفاء الحاجة إلى العبادة بتحقيق التطور النوعي للعقل البشري إلا انعكاس لطغيان الإنسان على خالقه المنعم، وتسويل من تسويلات الشيطان الذي قال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ «الحجر: ٣٩»، وقال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ، ثُمَّ لَا تَنبَهُهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ «الأعراف: ١٦-١٧».

التوبة المرفوضة

قال الله «عز وجل»: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّوْعَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا، وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ «النساء: ١٧-١٨».

هذه الآيات الشريفة ليست غريبة علينا من حيث اللفظ والتلاوة، ولكن هل هي غريبة علينا من حيث الدلالة؟

• آخر فرصة:

سؤال واحد يكشف لنا عن الإجابة: ما هي آخر فرصة تُعطى للإنسان كي يتوب؟

لعل كثيرين يجيبون على البدهة أن باب التوبة مفتوح حتى الأنفاس الأخيرة، إلى أن تصل الروح إلى الحلقوم وهي تخرج.. وتعبير الحديث



المنسوب للنبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» أنه قال: (إن الله يقبل توبة عبده ما لم يُغرغر).

هذه الإجابة تكشف عن أن دلالة الآيات السابقة غريبة عنا، أو جعلت هكذا نتيجة التعليم الخاطئ والمنهج الخاطئ في تلقي معارف الدين.

• صورتان متقابلتان:

في الآيتين السابقتين صورتان متقابلتان للتوبة، صورتها عند حضور الموت، وهي التوبة المرفوضة بدليل قوله: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾، وصورتها الأخرى عند المبادرة إلى التوبة حال الحياة بدليل قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

وكان الآيات تقول: لا تسوّف التوبة منتظراً اللحظات الأخيرة من

حياتك حين تجد أن لا هروب من الموت، فتُعلن حينها أنك تائب إلى الله.. فلا توقيت الموت معروف، ولا كيفيته التي قد تُفاجأ من خلالها بقبض الروح في لمح البصر، ولا التوبة في ذاتها مقبولة في تلك اللحظات لو سنحت لك الفرصة.

• أين الخلل؟

إذا كانت الآيات بهذا الوضوح في الدلالة، فما الذي يجعلنا نجيب بتلك الصورة؟

١- التعليم الخاطئ الذي لا يعتمد على القرآن كأساس في مرجعية المعارف الإسلامية، فيلجأ أحياناً إلى أحاديث ضعيفة أو مشوشة الدلالة ويقدم من خلالها الفكرة الخاطئة.

٢- المنهج الخاطئ حين يواجه الإنسان آية تتعارض في دلالتها مع حديث، فيقدم الحديث ويؤخر الآية، وهذا خطأ منهجي.. فالآية قطعية الصدور، والحديث ظني حتى ولو كان صحيح السند، لاحتمال اختراع السند، واحتمال الكذب على النبي «صلى الله عليه وآله» أو الإمام «عليه السلام»، واحتمال الوهم في السماع، وغير ذلك.

ولذا كان المنهج كما عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» قال: (خَطَبَ النبي «صلى الله عليه وآله» بمنى، فقال: أيها الناس، ما جاءكم عني يوافق كتابَ الله فأنا قلته، وما جاءكم يخالف كتابَ الله فلم أقله).

وعن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام»: (... وكلُّ حديث لا يوافق كتابَ الله فهو زخرف)، وعن محمد بن مسلم قال: قال أبو عبد الله «عليه السلام»: (يا محمد، ما جاءك في رواية من برٍّ أو فاجر يوافق القرآن فخذ به، وما جاءك في رواية من برٍّ أو فاجر يخالف القرآن فلا تأخذ به).

٣- قرب هذا المفهوم إلى النفس دون الصورة القرآنية للمسألة، حيث تسمح له أن يفعل ما يشاء ثم إذا حضره الموت وأيقن، تاب إلى الله «عزوجل» فتاب الله عليه، تماماً كفرعون: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ «يونس: ٩٠». فهل نفعه إيمانه عندما أيقن بالموت؟ تخيلوا أن البعض قال نعم! ويتحدّون بأن الله «عزوجل» لم يذكر في القرآن أن فرعون معاقب في الآخرة! وهذا تلاعب في كلام الله، وهو القائل بعد الآية السابقة مباشرة: ﴿الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ، فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ «يونس: ٩١-٩٢».. وما أروع هذا التعبير: ﴿وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾!

• ضرورة الإصلاح:

لقد قرن الله «عزوجل» التوبة بالإصلاح عندما يتحدث عنها: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ «آل عمران: ٨٩»، ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِيَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ

وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿النحل: ١١٩﴾، ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ ﴿الفرقان: ٧١﴾.

فهل يستطيع من أيقن بالموت وأيس من الحياة في اللحظات الأخيرة منها أن يعمل الصالحات ويصلح؟

وفي هذه اللحظات المباركة وفي هذا اليوم المبارك وفي هذا الشهر المبارك نتوجه إلى الله بنيات صادقة وقلوب خاشعة مع كلمات مولانا زين العابدين «عليه السلام» في الصحيفة السجادية مبادرين إلى التوبة بما قدمنا ولو في سالف الأيام قبل أن يهجم علينا الموت ولا تك حين مندم، قال «عليه السلام»: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ فِي مَقَامِي هَذَا مِنْ كَبَائِرِ ذُنُوبِي وَصَغَائِرِهَا، وَبَوَاطِنِ سَيِّئَاتِي وَظَوَاهِرِهَا، وَسَوَالِفِ زَلَّاتِي وَحَوَادِثِهَا، تَوْبَةً مَنْ لَا يَحْدُثُ نَفْسُهُ بِمَعْصِيَةٍ، وَلَا يُضْمِرُ أَنْ يَعُودَ فِي خَطِيئَةٍ، وَقَدْ قُلْتُ يَا إِلَهِي فِي مُحْكَمِ كِتَابِكَ إِنَّكَ تَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِكَ، وَتَغْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ، وَتُحِبُّ التَّوَّابِينَ، فَاقْبَلْ تَوْبَتِي كَمَا وَعَدْتَ وَأَعْفُ عَنِ سَيِّئَاتِي كَمَا ضَمَنْتَ، وَأَوْجِبْ لِي مَحَبَّتَكَ كَمَا شَرَطْتَ... اللَّهُمَّ إِنْ يَكُنِ النَّدَمُ تَوْبَةً إِلَيْكَ فَأَنَا أَنْدَمُ النَّادِمِينَ، وَإِنْ يَكُنِ التَّرْكُ لِمَعْصِيَتِكَ إِنْابَةً فَأَنَا أَوَّلُ الْمُنِيبِينَ، وَإِنْ يَكُنِ الْاسْتِغْفَارُ حِطَّةً لِلذُّنُوبِ فَإِنِّي لَكَ مِنَ الْمُسْتَغْفِرِينَ. اللَّهُمَّ فَكَمَا أَمَرْتَ بِالتَّوْبَةِ وَضَمَنْتَ الْقَبُولَ وَحَثَّتْ عَلَى الدُّعَاءِ وَوَعَدْتَ الْإِجَابَةَ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَاقْبَلْ تَوْبَتِي وَلَا تَرْجِعْنِي مَرْجِعَ الْخَيْبَةِ مِنْ رَحْمَتِكَ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ عَلَى الْمُذْنِبِينَ، وَالرَّحِيمُ لِلْخَاطِئِينَ الْمُنِيبِينَ).

حق الأمن الفردي

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (البقرة: ٨٤).

هذه الآية الشريفة وإن كانت تتحدث عن ميثاق الله «عز وجل» مع بني إسرائيل، إلا أنها من حيث المبدأ تُعتبر ميثاقاً إلهياً مع كل المؤمنين، بأن يحفظوا حق الأمن لكل فرد منهم، في نفسه، وفي معيشتة وموطنه.

• مفهوم الأمن الفردي:

حق الأمن الفردي عنوان من العناوين الخاصة بمنظومة حقوق الإنسان، وفُسر بأنه: (ضمان قَدَر من الطمأنينة يستطيع الفرد بفضلها وحسب القوانين المعمول بها أن ينظّم شؤون حياته ويخطط لمستقبله).

واعتبر هذا الحق من أهم حقوق الإنسان، فالعمل به يُعتبر الأساس الذي تُبنى عليه بقية الحقوق. وإلاّ فما قيمة الحقوق السياسية أو الاقتصادية وغيرهما إذا كان هذا الحق مُهدّداً أو مُهدراً.

ولذا نجد في دستور الكويت المواد التالية:

مادة ٣١: لا يجوز القبض على إنسان أو حبسه أو تفتيشه أو تحديد إقامته أو تقييد حريته في الإقامة أو التنقل إلا وفق أحكام القانون. ولا يُعرض أي إنسان للتعذيب أو للمعاملة الحاطة بالكرامة.

مادة ٣٢: لا جريمة ولا عقوبة إلا بناء على قانون، ولا عقاب إلا على الأفعال اللاحقة للعمل بالقانون الذي ينص عليها.

مادة ٣٣: العقوبة شخصية.

مادة ٣٤: المتهم بريء حتى تثبت إدانته في محاكمة قانونية تؤمن له فيها الضمانات الضرورية لممارسة حق الدفاع. ويحظر إيذاء المتهم جسمانياً أو معنوياً.

وهي مواد رائعة تحقق جانباً من حق الفرد في الأمن.

• كل المسلم حرام:

بالطبع هذا الحق لا يرتبط بعلاقة الدولة بأفراد المجتمع فقط، بل بين أفراد المجتمع بعضهم البعض، ولذا يأتي إقرار هذا الحق للفرد متناغماً مع تعاليم الإسلام، ومنها قول النبي «صلى الله عليه وآله»: (كلُّ المسلم على المسلم حرام، دمه وعرضه وماله).

ومن المؤسف أن هذه القاعدة الإسلامية ما عاد لها وجود اليوم في أذهان المتدينين بغض النظر عن سواهم، فالاختلاف المذهبي أصبح في

عالمنا الإسلامي مسوَّغاً لسلب الأمن الفردي، بالتعرض للكرامة وحرمة الشخصية، فضلاً عن القتل والتدمير والإحراق والتفجير والاعتداء على الأعراس والسلب والتفجير على الهوية المذهبية، بل والانتماء الحزبي والسياسي، ولو كانت الأحزاب المتنافسة كلها (إسلامية ومتديّنة).

الإسلام أعطى عصمة للدماء والنفوس والأعراض، كي يشعر الفرد بالأمن وهو في مجتمعه، بل وفي أسفاره وحيثما حل.. ودرب المسلمين على ممارسة هذا الأمن، والشعور بقيمته من خلال تشريع الحج والإحرام وتحديد أحكام خاصة بالحرم المكي: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ «العنكبوت: ٦٧».

• الصيام تدريب عملي:

بل حتى الصيام في شهر رمضان هو نوع من التدريب العملي على السلم الفردي.. ففي خطبة النبي «صلى الله عليه وآله» ففي استقبال شهر رمضان أنه قال: (ومن كفّ فيه شرّه، كفّ الله عنه غضبه يوم يلقاه).

ومن هنا اعتبر النبي «صلى الله عليه وآله» أن لا قيمة لصيام الإنسان الذي لم يُفلح في ضبط قوته الغضبية. ففي كتاب الحسين بن سعيد عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» أنه قال: (سمع رسول الله «صلى الله عليه وآله» امرأة تسابّ جارية لها وهي صائمة، فدعا رسول الله «صلى الله عليه وآله»

بطعام فقال لها: كلي. فقالت: أنا صائمةٌ يا رسول الله، فقال: كيف تكونين صائمةً وقد سببت جاريتك؟ إنَّ الصوم ليس من الطعام والشراب، وإنما جعل الله ذلك حجاباً عن سواهما من الفواحش. من الفعل والقول يفطرُ الصائم. ما أقلَّ الصَّوَامَ وأكثرَ الجَوَاعَ).

فإذا كان للسب - وهو تعرُّضُ لكرامة الآخرين ويمثِّل حالة سلبٍ لحق الفرد في الأمن - مثل هذا التأثير السلبي على الصيام، فكيف بالذبح والقتل والحرق والتفجير والتشريد وأخواتها؟

• مآسي بلاد المسلمين:

دخل شهر رمضان هذا العام والعديد من بلاد المسلمين افتقد فيها الفرد حقه في الأمن.. في سوريا، في العراق، في اليمن، في ليبيا، في أفغانستان، في مصر، وفي عدة دول أفريقية.. شهر رمضان الذي اعتاد المسلمون على تسميته شهر الخير والبركة والرحمة والتواصل.

وقد خطط التكفيريون أن يجروا إلى مهالكهم هذه دولاً مثل السعودية والكويت من خلال جرائمهم ومنحططاتهم في تفجير بيوت الله، بينما قال الله «عز وجل»: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ «البقرة: ١١٤». وهم إن لم ينجحوا في التدمير حيث شاءوا، إلا أنهم نجحوا في إشعار المسلم بعدم الأمن وهو في بيت الله!

وحسناً فعلت الأجهزة الأمنية بالمسارعة لاتخاذ خطوات في الحفاظ على أمن دور العبادة عموماً، وليس المساجد فقط، فكل من أمناه في أوطاننا - بغض النظر عن دينه - يجب أن يشعر بأنه آمن حيثما حل .

• جرائم تقنية المعلومات:

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن حق الأمن الفردي الذي كفله الدستور يجب أن يُراعَى أيضاً عند سن القوانين .

فكما اعتبرت المادة الثانية والثلاثين أن لا جريمة ولا عقوبة إلا بناءً على قانون، فإنه لا ينبغي الالتفاف عليها من خلال سن قوانين فضفاضة قابلة للتفسير بأكثر من صورة، ويشعر معها الفرد بالخوف من التعبير عن رأيه حتى في أبسط الأمور، وهذا ما انعكس من خلال ردود الفعل على مشروع القانون الذي وافق عليه مجلس الأمة مؤخراً بشأن مكافحة جرائم تقنية المعلومات .

فهذا المشروع وإن احتوى على فقرات مهمة وتساعد على تحقيق الأمن الفردي من قبيل تجريم التجسس والابتزاز وسرقة المعلومات، إلا أن المادتين السادسة والسابعة رُبطتا بقانون المطبوعات والنشر المُقر سابقاً، ولا يخفى ما كان على هذا القانون من ملاحظات مهمة تخص تقييد حرية التعبير، حتى بات البعض يقول أن الوتسب - بعد الصحف - لم يعد صالحاً إلا لتبادل وصفات الطبخ!

لا تَهَيِّعُوا خَلْفِيَاتِ التَّفْجِيرِ

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ «النساء: ٩٣».

الجريمة التي وقعت في مسجد الإمام الصادق «عليه السلام» الأسبوع الماضي - من حيث النوع - ما كانت أمراً مستغرباً، بل هو حدثٌ مُنتظر بلحاظ المعطيات على الأرض، والتهديد الذي بثّه الإرهابيون بعد تفجيري القديح والعنود.

• تصدير المشكلة:

البعض اليوم يحاول باستماتة تصدير المشكلة إلى الخارج، بادّعاء أن هذه الجريمة مستوردة، وليست نابعة من الداخل.. وهذا على الأقل خطأ كبير، إن لم يكن مقصوداً لحماية الإرهابيين والمتطرفين في الكويت. منذ عقود والمتطرفون يعملون وفق أجنداتهم التكفيرية، ويزرعون في قلوب الشباب والأطفال الأحقاد ضد من يخالفهم، حتى باتوا يحرضونهم

على آبائهم وأمهاتهم إن لم يتفقوا معهم في أفكارهم الظلامية، وأن يبدؤوا بالتبرؤ منهم قبل الآخرين، مخالفين بذلك كلام الله عز وجل وسنة رسوله «صلى الله عليه وآله» والقيم الإنسانية.

صحيح أن المجرم الإرهابي الذي فجر نفسه وافد على البلد، إلا أنه ما كان له تحقيق ذلك لولا وجود بيئة حاضنة هيأت له الأمور وأعانتة في جريمته.

ولذا علينا أن نعمل كي لا ينجح هؤلاء في تميع خلفيات الجريمة، وأن يتم التحرك الدؤوب من خلال العلاقات مع المسؤولين في الدولة، ومن خلال الصحافة ووسائل الإعلام، ومن خلال وسائل التواصل الاجتماعي، كي تستمر عملية التصحيح في التعامل مع منابع التطرف، وبشكل علمي وعملي.

● غرفة طوارئ وطنية:

ونتمنى لو نشاهد غرفة طوارئ وطنية يتم تشكيلها بشكل صحيح من مجموعة من رجالات وشباب الكويت الغيارى والفاعلين، تكون مهمتها رسم معالم المرحلة المقبلة، والتخطيط لتخليص البلد من تراكمات التطرف والتحريض الطائفي المنهج.

هؤلاء التكفيريون حيث تجرؤوا واعتدوا اليوم على بيت من بيوت الله، فلن يكون لديهم مانع أبداً أن يحولوا عدوانهم ليشمل الأسواق



والتجمعات الترفيهية والمراكز الأمنية، فهي أقل حرمة وقداسة، وإن كانت
أرواح الناس في نظرنا نحن وفي الحقيقة غالية حيثما كانوا.

• إلى أصحاب القرار:

رسالة إلى أصحاب القرار.. إن الاكتفاء بالمعالجات الآنية والسطحية
والعاطفية لن يحل مشكلة، بل ولربما يُعطي إشارة خاطئة تدفعهم مستقبلاً
للمزيد من التجرؤ على أمن البلد والمواطنين، وهو ما لا يتمناه أحد ممن
يحب هذا الوطن. ومثل هذه المعالجات قد تكون مؤلمة أحياناً وتقترن

بالتضحيات وتحتاج إلى صبر وطول نفس، إلا أن خيرها سيمتد بإذن الله إلى أجيال قادمة.

• إلى أصحاب خطاب الكراهية:

الرسالة الثانية: إلى أصحاب خطاب الكراهية من كافة المذاهب.. كفاكم فتنة، وكفاكم سعيًا للفرقة، وكفاكم عبثًا في عقول الناس ومشاعرهم.. إن الأمن والسلام غاية من الغايات المقدسة، ومن هنا كان استغراب الملائكة حيث قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ «البقرة: ٣٠»، ولذا شرع الله الأشهر الحرم، والأرض الحرام ومحرمات الإحرام، وحرمة المسلم دماً ومالاً وعرضاً وغير ذلك من عناوين إنما غايتها الأمن لا النزاع ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ «الأنعام: ١٥٩».

• إلى شيعة الكويت:

وأما رسالتي إلى الداخل: كونوا على قدر المسؤولية.. لا تستهينوا بمساعي إثارة الفتنة وإشعال الأحقاد.. فوّتوا الفرصة على الذين لا يريدون الخير بأمّتنا ووطننا.. مشكلتنا ليست مع أهل السنة، فهم إخواننا وأحبّتنا، مصيرنا ومصيرهم واحد.. ولكن مشكلتنا مع الإرهابيين والمتطرفين، ولنتعاون جميعاً على اجتثاث جذور هذه الشجرة الخبيثة لنعيد إلى الكويت الابتسامة، ونرفع عنها وشاح الحزن.

يوم القدس و روحانية رمضان

﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ، قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا، نَصَفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ لماذا؟ ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ ولماذا؟ ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ (المزمل: ١-٤، ٥، ٧)».

شهر رمضان شهر الروحانية.. شهر تقوية العلاقة بالله سبحانه وتعالى.. في هذا الشهر صمنا وتنفلنا وتلونا القرآن وأحيينا الليالي بالعبادة والدعاء والذكر.. وحضرنا المجالس الإيمانية، وتفرغنا ليلية القدر، وكل هذا كما هو واضح يصب في اتجاه التنمية الروحية في نفوسنا.

ولكن عندما جاء الإمام الخميني «رحمه الله» واختار آخر جمعة من شهر رمضان من كل عام ليكون هذا اليوم باسم يوم القدس العالمي، فإن هذا يعني أن قمة الروحانية وقمة العلاقة بالله «عز وجل» هي الإحساس بالمسؤولية عن الإسلام وقضاياها، لا الانكفاء والانشغال بالذات.

وما زالت قضية القدس والقضية الفلسطينية هي رأس قضاياها، ويجب أن تبقى هكذا، وإن شغلنا التكفيريين الإرهابيين ومن وراءهم عن القضية

الأم عملياً وفكرياً، واستهلكونا إعلامياً ومادياً، وبهذا الحجم من التدمير الممنهج لقدرات الأمة وبشكل غير مسبوق. والقدس تمثل الرمز للقضية برمتها، وليست هي المعنية في ذاتها، وإن كانت القدس تمثل القيمة العظمى من خلال قدسيتها، وكونها الأرض التي باركها الله، ومن خلال هذا التاريخ الممتد لعلاقتها بالرسالات السماوية وبمسيرة الأنبياء.

• القدس وديعة الله:

بل إن الله «عز وجل» لم يشأ أن يكمل نبينا الأكرم «صلى الله عليه وآله» مسيرته الرسالية دون أن يزور القدس وتطأ قدماءه حيث وطأت أقدام الأنبياء الذين سبقوه، ليعيش أجواء تجربتهم الرسالية عن قرب، وليبين له أن رسالته هي الامتداد الحقيقي لرسالتهم، وأنه الوارث لكل إنجازاتهم الرسالية العظيمة، بما فيها المسجد الأقصى.

ومن هنا فإن المسلم يؤمن بأنه مسؤول عن القدس، لا من ناحية الانتماء الوطني أو القومي أو التاريخي، حتى ندخل في متاهات التوزيع الجيوسياسي، أو الامتداد التاريخي لسكان هذه المدينة العريقة.

المسلم مسؤول عن القدس من جهة أنها تمثل الأمانة الرسالية التي أودعت عند رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ثم أودعها النبي عند المسلمين، وعليهم أن يتحملوا مسؤوليتهم تجاهها.. والمسؤولية الرئيسة تجاهها اليوم تتمثل في رفض الاحتلال والسعي لتخليصها منه.

• رفض الاحتلال والظلم:

ثم إن الاحتفال بيوم القدس العالمي - من جهة أخرى - يمثل رمزاً لرفض كل احتلال وكل ظلم يُمارَس بحق المضطهدين الذين تُسلب أراضيهم وبيوتهم ليُصبحوا مشرّدين، أو الذين يفرون من ديارهم خوفاً على أنفسهم وأهليهم وأعراضهم من بطش الغزاة أو الطغاة ولو كانوا من أبناء جلدتهم ودينهم.

اليوم وإذ يشهد عالمنا تشرّد الملايين عن أوطانهم أو مدنهم أو قراهم في فلسطين وسوريا والعراق واليمن ونواحي عدة من أفريقيا وغيرها، فإننا نستذكر حق الإنسان - مسلماً كان أم غير مسلم - في أن يعيش في وطنه آمناً.. وحرمة التهجير القسري أو الهجرة نتيجة الإرهاب الذي مارسه وتمارسه العصابة الصهيونية وبعض الحكومات السلطوية والجماعات التكفيرية والقوميات المتطرفة، وقد قال «عزوجل» مبيناً حجم هذه الجريمة التي تصل إلى مستوى إزهاق النفوس: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ «البقرة: ٨٤» ويأتي يوم القدس العالمي ليمثل محطة زمنية تتوقف عندها لتذكر ونذكر المجتمع الدولي بقضية فلسطين وبكل قضايا المضطهدين والمستضعفين، لأن الإسلام في روحانيته يرسّخ في المسلم روح المسؤولية، وقد قال النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» في ما روي عنه: (من بات ولم يهتم بأمر المسلمين فليس بمسلم) وقال: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته).

هل للإنسان قيمة في الإسلام؟ ٣٦

لا يخفى أن الخطاب الإسلامي يؤكد على القيمة العليا للإنسان والإنسانية، بل يقال: (الإسلام دين الإنسانية).

ويتمسك في هذا الإطار بنصوص عديدة من أهمها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٠).

ونلاحظ أن الآية لم تكتفِ بالفعل (فضّلنا) بل جاءت بعد ذلك بالمفعول المطلق (تفضيلاً). قال ابن عاشور في التحرير والتنوير: (والإتيان بالمفعول المطلق في قوله تفضيلاً لإفادة ما في التنكير من التعظيم أي تفضيلاً كبيراً).

• شعار أم حقيقة؟

ولو كان هذا الخطاب الإسلامي العام والشعاراتي يُطلق في إطار القرون الماضية، لربما كان كافياً للتأكيد على المطلب، ولكن اليوم بات من الواضح

أن مثل هذا الخطاب العام والشعاراتي غير كاف أبداً لتأكيد الفكرة. اليوم - مع الانفتاح المعلوماتي - هناك إحاطة وتعمق في قراءة المفردات التشريعية والأخلاقية، بحيث ما عاد مقبولا التوقف عند تلك الحالة الشعاراتية والعامية، بل لابد من تقديم نماذج وتطبيقات على ذلك. بل المسألة تحتاج أيضاً إلى التفكير في الملاحظات العديدة التي تُقدّم على بعض التشريعات والأخلاقيات التي تتعارض مع هذا الشعار. مثال ذلك: يذهب مشهور الفقهاء عند السنة والشيعة إلى أن (غير المسلم إن لم يكن ذمياً، فلا حرمة له في نفسه ولا في عرضه) أي شخصيته الاعتبارية واحترام شخصيته (ولا في ماله، حتى لو كان مسالماً وغير مُعادٍ لنا ولا لقضايانا).

وأما الذمي فإن الذمة هي التي تمنحه الاحترام، وهي إنما تعطيه حرمة لنفسه وماله فقط، دون عرضه، وبالتالي يجوز شتمه ولعنه وغيبته.. إلخ القائمة.

• تعارض المضمون مع الشعار:

هذا النموذج من الفتوى لا يمكنه أن ينسجم مع العنوان الجميل الذي قدّمناه حول قيمة الإنسان في الإسلام وأن الإسلام دين الإنسانية. وهذا ما بات يواجهه الخطاب الإسلامي بكل وضوح حتى كتب محمد علي المحمود في (السلفية والتنوير): (تاريخنا - كمسلمين وكعرب

على نحو أخص - منذ كان وإلى اليوم لم يحضر الإنسان فيه كقيمة أولية إلا في استثناءات قليلة ونادرة.. الاعتبار كان يقام لكل شيء حتى الحجر، بينما يأتي الإنسان في الهامش الأخير من جدول الأعمال لأمتنا الخالدة.. ومن المؤسف حقاً أنه كلما عُرضت قضية الإنسان على الفكر الإسلامي المعاصر انشغل بمرافعات مثالية تتعالى على الواقع الذي يباركه الإسلامي ويرفض تغييره).

وفي ما كتبه نسبة معقولة من الصحة، حتى أنك عندما تراجع كتب التفسير حول آية ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ تجد بحوثاً ونقاشات مطوّلة لصفحات وصفحات حول أيهما أفضل: الإنسان أم الملائكة؟ وهو موضوع يُعدّ التعرّض له نوعاً من الترف الفكري، بينما لا تجد - إلا النادر جداً - مَنْ يتطرق إلى الاستفادة التشريعية من الآية في إطار النظرة والموقف من الإنسان كإنسان بغض النظر عن انتمائه الديني.

• الكرامة التشريعية:

فلعل الله «عزوجل» حين كرّم بني آدم تكوينياً، فإنه يريد لهم أن يؤكدوا هذه الكرامة على مستوى الحياة، وفي علاقاتهم الاجتماعية التي تحكم تصرف كل واحد منهم تجاه الآخر، سيما وأن التصرف السلبي المخالف لذلك يتنافى مع الكرامة الإلهية للإنسان، لأنه ينتهي إلى الإهانة لمن يريد الله «عزوجل» احترامه.

• حتمية الاجتهاد المتجدد:

إن خطابنا الإسلامي ومناهجنا التعليمية الإسلامية وبحوثنا الفقهية التخصصية بحاجة إلى إعادة النظر في مسألة موقع الإنسان كإنسان في الإسلام، ولعل آية ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ تكون المنطلق الذي يؤكد على أن هذا الإعلان عن تكريم الله «عز وجل» لبني آدم ليس مجرد حديث عن التكريم التكويني في طبيعته ودوره في الحياة، بل يتعداه إلى التكريم التشريعي الذي يعني كرامة الإنسان كأصل من أصول النظرة القرآنية إليه، وتقدم لنا بالتالي قاعدةً شرعيةً، هي احترام الإنسان - لا المسلم فحسب - في نفسه وماله وعرضه، كأصل إسلامي فقهي، لا يجوز الخروج عنه إلا بعنوان آخر مخصص له، كأن يبادر بالعدوان وأمثال ذلك.

إن المشهد المأساوي الذي تعيشه الأمة الإسلامية على الصعيد العملي في حجم الحروب واسترخاض سفك الدماء وفي فضائع انتهاكات حقوق الإنسان، علاوة على الفوضى الفكرية العارمة التي ما باتت تستثني حوزةً أو جامعةً أو مؤسسةً ثقافية، تستدعي بمجملها انتفاضةً فكريةً جادة يكون فيها العقل وإعادة قراءة النصوص بذهنية الإنسان الرسالي منطلقاً لتجديد الاجتهاد في القيمة الحقيقية للإنسان في الإسلام.

خطر الشائعات والإشاعات

قال بعض أهل الاختصاص بأن (الإشاعة) هي تضخيم للأخبار الصغيرة، وإظهارها بصورة تختلف عن صورتها الحقيقية.. فهي - إذا - أخبار موجودة، ولكنها تهوّل فتصبح (إشاعة).

أمّا (الشائعات) فهي أقوال أو أخبار يختلقها البعض لأغراض معينة غالباً ما تكون خبيثة، ويتناقلها الناس بحسن نية، دون التثبت في صحتها، ودون التحقق من صدقها.

• من سورة النور:

وقد تحدث القرآن الكريم عن النموذجين ضمن معالجته لحدث الإفك الذي تناولته سورة النور في بعض آياتها، قال «عز وجل»: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ.... إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ

اللَّهِ عَظِيمٌ، وَلَوْلَا إِذِ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿النور: ١١-١٦﴾.

• دور المخابرات:

قد يكون إطلاق الشائعة أو الإشاعة في بداية الأمر عن حسن نية، من قبيل إطلاق مُزحة، ثم سرعان ما تتحول إلى خبر منتشر بين الناس. ولكن مع التوسع في استعمال شبكة الإنترنت، ودخول المصالح المتقاطعة للسياسيين والحزبيين ودوائر المخابرات وذوي المطامع الشخصية على الخط، فإنه بات من السذاجة أن نتعامل مع الأمر بحسن نية. اليوم باتت هناك قناعة أن بعض الدوائر المخابراتية التي لا تريد بمجتمعاتنا خيراً لديها غرف عمليات متخصصة في صياغة الإشاعات والشائعات ونشرها، بل وإعادة نشرها متى ما ارتأت ذلك.

لاحظوا مثلاً عندنا في الكويت بعد تحقق نوع من التلاحم بين مكونات المجتمع على أثر التفجير الإرهابي لمسجد الإمام الصادق «عليه السلام»، بدأت حالة محمومة من نشر الأخبار الكاذبة والمضخمة، بل وإعادة نشر للشائعات والإشاعات القديمة التي تداولها الناس قبل سنوات، وتركز على الضرب على الوتر الطائفي.

هذا ليس بسلوك عفوي، بل هو سلوك مدروس وتقف وراءه غرف عمليات متخصصة وذات أهداف واضحة. ونحن نتحول إلى أدوات

لهذه الدوائر الخبيثة من خلال تصديق المضمون وترتيب الأثر عليه على المستوى الشخصي، ومن خلال إعادة البث والنشر.. فهم إنما ينجحون لأن لدينا القابلية الكبيرة لتحقيق ما يريدون.

• خطر الهزيمة النفسية:

وهناك من يعملون على بث الشائعات والإشاعات من أجل أن يهزمونا نفسياً، ومن أجل أن يحطّموا فينا ما عندنا من عناصر القوة.

وهؤلاء يستعملون نفس الأسلوب.. إطلاق الشرارة المتمثلة في الخبر الكاذب أو المهوّل، ثم تتحول نحن إلى الحطب الذي تشتعل فيه النيران، وتنقلها إلى مديات واسعة هنا وهناك.

تماماً كما فعل عبيد الله بن زياد حين طلب من أفراد معدودين الوقوف أعلى قصر الإمارة في الكوفة ليبثوا شائعة أن جيش الشام المتوحش في طريقه إلى العراق.. والنتيجة تخلي الآلاف من الناس عن مسلم بن عقيل والتحول إلى المعسكر الأموي أو اختيار الموقف السلبي.

كتب د. مختار التهامي أستاذ الرأي العام بجامعة القاهرة وعميد كلية الإعلام الأسبق في كتابه (الرأي العام والحرب النفسية): (الهزيمة حالة عقلية.... لأن من مهام الشائعات تهيئة الخصم للقبول بالهزيمة من خلال إطلاق الإشاعات التي تقضي على روحه المعنوية، حتى يصل لدرجة تجعله يعتقد أن الحرب أنكى من الهزيمة، والتاريخ يزرع بكثير من



الشائعات التي غيرت مجرى الأمم، وأقامت الحروب، وشتت الجماعات).

• النموذج العراقي:

ومن هنا نجح أفراد قلائل من التكفيريين في العراق في دفع قوات نظامية يبلغ تعدادها بالمئات بل والآلاف إلى الاستسلام أو الفرار، عندما سبقتهم إشاعاتهم وشائعاتهم التي هزموا بها المعنويات حتى قبل وصولهم. بعض الصور ومقاطع الفيديو المخرجة بإتقان، وصلت إلينا عبر وسائل التواصل الاجتماعي ومررناها بكل عفوية، كانت نتيجتها الطبيعية هذه الهزيمة النفسية.

وهذا يؤكد أن من يقف وراء هذه الجماعات التكفيرية ليسوا المتخلفين والفاشلين من قبيل الذين يُستعملون كمطايا للتفجير الانتحاري، بل أيدي مخبراتية على قدر عال من التعليم والتدريب.

ولذا فإن علينا أن لا نستسخر كيسة الزر التي من خلالها نمر الخبر..
خبر واحد كاذب أطلقه الوليد بن عقبة كاد أن يسبب كارثة بين المسلمين،
فأنزل الله تعالى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا
أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ «الحجرات: ٦».
وكون الوصف يخص الفاسق كي نكون ملزمين بالتأكد والتثبت لا يعني
عدم ذلك إن كان الناقل ثقة، فالخبر قد يصل إليك من أخيك المؤمن،
ولكن يا ترى هل هو المصدر الأول للخبر؟ وهل تثبت من صحته؟ عادةً
ما يكون الأمر على خلاف ذلك.

• اقتلوا الشائعات:

إننا بحاجة إلى أن نتعلم كيف نقتل الشائعة والإشاعة وهي في مهدها،
تماماً كما قالت الآيات الكريمة التي عاجلت حادث الإفك: ﴿وَلَوْلَا إِذْ
سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾.. خذ القرار اليوم ولا تكن
من أدوات الأشرار الذين يريدون هزيمتنا معنوياً قبل أن يهزموننا على
الأرض.. والذين يريدون إثارة الفتن بيننا كلما تقاربنا وتلاحمنا، وتذكر
أن الله حمّلنا مسؤولية الكلمة كما حمّلنا مسؤولية العمل، وقد نقف بين
يديه طويلاً ولا نملك الجواب حين يسألنا: ألم تكن لكم عقول تفكرون
بها؟ ألم يبلغكم قولي: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ
وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾؟

خذوا زينتكم

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ «الأعراف: ٣١».

تأتي هذه الآية ضمن سلسلة من الوصايا التي أعقبت الحديث عن آدم وحواء وكيف خدعهما الشيطان فحسرا ذلك العطاء الإلهي الذي كانا ينعمان فيه، فجاءت أولى الوصايا التي ترسم طريق النجاة في الآية السادسة والعشرين حيث الوصية بالتقوى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾.

وفي الآية اللاحقة التحذير من تسويلات الشيطان: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾.

ثم في الآية التاسعة والعشرين الوصية بالعدل والارتباط بالمساجد وهي مواضع عبادة الله، والإخلاص في الدعاء والعبادة: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

ثم في الآية الحادية والثلاثين منها الوصية بأخذ الزينة عند كل مسجد ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

لتستمر الآيات بالحديث عن الاعتدال في التعاطي مع نعم الله، وعن الغاية من التشريعات، الإلهية وعن ضرورة الإيمان بالنبوة واليوم الآخر.

• لحاظات تكشف الأهمية:

هذه الآيات تمثل خلاصة الوصايا الإلهية لبني آدم على طول التاريخ، وتشملنا نحن كمؤمنين بآخر الرسالات السماوية والنازلة على خاتم النبيين محمد «صلى الله عليه وآله».

وعندما تأتي الوصية بأخذ الزينة عند كل مسجد، في امتدادها الزمني عبر التاريخ البشري، وضمن هذه العناوين الرئيسة من الوصايا، فهذا يكشف عن مدى أهمية الأمر في تكامل علاقة المؤمن بربه، وإن عُنون فقهيًا بأنه من ضمن المستحبات والمندوبات، لا الواجبات الشرعية.

وهكذا هو الأمر فعلاً عندما نقرأ سيرة المتديّنين بالرسالات السماوية عبر التاريخ، واهتمامهم بالنظافة الجسدية والمظهر الخارجي، علاوة على ارتدائهم أفضل ثيابهم حينما يقصدون أماكن العبادة.

في تهذيب الشيخ الطوسي عن الحكم بن حكيم قال: (سمعتُ أبا عبد الله «عليه السلام» يقول - وسُئل عن الصلاة في البيع والكنائس - فقال: صل فيها، قد رأيتها ما أنظفها. قلت أيصلى فيها وإن كانوا يصلون فيها؟ فقال:

نعم، أما تقرأ القرآن ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ صَلِّ عَلَى الْقِبْلَةِ وَغَرِبِهِمْ). ولنلاحظ كيف هي العناية بمسألة النظافة هنا لمكان الصلاة، وهي لا تختص بالمسلمين كما يتبين.

ولكن لا أدري ماذا حل بالمسلمين حتى أنك ترى بعضهم إذا قصد المسجد حضر ببيجامة النوم، أو بتياب متسخة، أو غير لائقة، فضلاً عن النظافة الجسدية حتى أنك لا تطيق أن تجلس بجانبه من عفونة الرائحة.

• في النصوص الدينية:

في تفسير العياشي عن خيثمة بن أبي خيثمة قال: (كان الحسن بن علي «عليه السلام» إذا قام إلى الصلاة لبس أجود ثيابه. فقيل له: يا ابن رسول الله لم تلبس أجود ثيابك؟ فقال: إن الله جميل يحب الجمال، فأتجمل لربي، وهو يقول: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ فأحب أن ألبس أجود ثيابي).

في تهذيب الشيخ الطوسي عن علي «عليه السلام»: (مَنْ أَكَلَ شَيْئاً مِنَ الْمُؤَذِيَّاتِ رِيحُهَا فَلَا يَقْرُبَنَّ الْمَسْجِدَ).

وفي الكافي للكليني عن الصادق «عليه السلام»: (صَلَاةٌ مَطْيَبٌ أَفْضَلُ مِنْ سَبْعِينَ صَلَاةً بِغَيْرِ طَيِّبٍ).

وفي الكافي عن أبي عبد الله جعفر الصادق «عليه السلام» قال: (كان رسول الله «صلى الله عليه وآله» ينفق في الطيب أكثر مما ينفق في الطعام).

• في نصوص الرّحالة:

تاريخياً حرص المسلمون على رعاية الوصية الإلهية، وقد نوه ابن بطوطة إلى هذه الناحية في رحلته، حتى أنه ذكر ضمن كلامه عن المسلمين في جزر المالديف أنهم يعتقدون هناك أنه لا جمعة لمن لم يتخذ أغلى ما لديه من الثياب في ذلك اليوم! وحكى ابن جبير أن الناس في بعض قرى العراق يمنعون ذا الثياب الخلقّة أو الرثة من شهود الجمعة!

أما المسعودي فقد أطل الوصف عند حديثه عن أزياء الناس وحسن مظهرهم عند شهود الجمعة في بلاد إيران. وقد وصف ابن الخطيب أهل غرناطة في هذا المجال قائلاً: (تُبصرهم في المساجد أيام الجمع كأنهم الأزهار المفتحة في البطاح الكريمة تحت الأهوية المعتدلة).

• مشكلة أعمق:

ولكن يبدو أن مشكلة البعض - اليوم - سلوكية عامة، حتى أن بعض الزوجات يشتكين من رائحة أزواجهن بسبب عدم الاعتناء بالنظافة الشخصية، وتبديل الثياب الداخلية، والتنظف من الشعر الزائد، وأمثال ذلك، حتى تتحول المعاشرة الزوجية بينهما - بتعبيرهن - إلى عملية باعثة على الاشمئزاز. في الكافي عن الحسن بن جهم عن الكاظم «عليه السلام» قوله: (إن التهيئة مما يزيد في عفة النساء، ولقد ترك النساء العفة بترك أزواجهن التهيئة، ثم قال: أيسرُك أن تراها على ما تراك عليه إذا كنت

على غير تهئية؟ قلت: لا، قال: فهو ذاك). وللمرحوم د. مصطفى محمود في محاضرة له يقول أن الرائحة الكريهة للإبط هي بفعل البكتيريا التي تنمو هناك، وهذه البكتيريا لديها قابلية رهيبة للانقسام والتكاثر، حتى أن كل واحدة منها حين تتكاثر بالانقسام تصبح في غضون ٨ ساعات مليوناً! وبتعبيره أنك لو لم تتنظف خلال شهر فإن أعداد البكتيريا النامية تحت الإبط لو فرشت لغطت سطح الكرة الأرضية!!

والحمد لله أن لدينا في تعاليمنا الإسلامية عشرات التوجيهات الخاصة بالنظافة الشخصية، بل وأخذ بعضها بُعداً عبادياً وشرعياً كمسألة التطهر من النجاسات واستحباب غسل الأسنان وتقليم الأظفار وما إلى ذلك.

• تطلعات وآمال:

إن ثقافة النظافة تعد من الثقافات الرئيسة التي تجسّد هوية الأمم، وعنواناً من عناوين الحضارة، ودليلاً على وعي الأفراد ومدى شعورهم بالمسؤولية. ولقد جعل الإسلام من النظافة الشخصية والعامة شعاراً إيمانياً، واعتبرها سلوكاً حضارياً يُجسّد روحَ الولاء والعبودية لله الجميل الذي يحب الجمال.. وإننا نتطلع إلى اليوم الذي تعود فيه المفاهيم الأصيلة التي تخلينا عنها كثقافة نَظْم الأمر، وتقدير الوقت، ورعاية النظافة العامة والشخصية، واحترام مشاعر الآخرين، وأمثال ذلك، لتصبح ثقافة راسخة في عقولنا وممارسة حية في سلوكنا وعلامة بارزة في مجتمعنا.

٢٩

العدوان على المسجد الأقصى

خلال العقود الماضية للاحتلال الصهيوني للأراضي الفلسطينية، كان اقتحام اليهود للمسجد الأقصى أمراً مألوفاً ومتكرراً.. إلا أن التطور الجديد في الأمر هو قيام جنود الاحتلال باقتحام حرم الصلاة في المسجد، والدوس على المصاحف، وتكسير أثاث المسجد، وتدليس محرابه، والاعتداء بالسلاح على المصلين والمدافعين عنه، مما أدى أيضاً إلى نشوب حريق في جزء منه.

• رد الفعل العربي:

وكالعادة لم يتجاوز رد الفعل العربي والإسلامي على أكثر من الإدانة.. وكيف يُتوقع منهم أكثر من ذلك وبعضهم تتلوث أيديهم بدعم التكفيريين الذين يفجّرون المساجد ويقتلون المصلين ويحرقون المصاحف وباسم دولة الخلافة الإسلامية؟

بل هل يبقى للعرب والمسلمين أية حجة أمام المجتمع الدولي بينما



يقوم أبنائهم بأعمال إجرامية واعتداءات على المقدسات والحُرُمات بما يفوق ما يرتكبه الصهاينة؟

• مسخ العقل العربي:

والأنكى أن يُمسَخ العقل العربي الشعبي إلى الحد الذي تكون فيه ردود فعله غير العقلانية والمعكوسة تمثّل الاتجاه الغالب! فقبل أيام كنت أقرأ خبراً منشوراً على صحيفة إلكترونية مفاده أن التكفيريين قتلوا أربعين

مقاتلاً من الجيش العراقي والحشد الشعبي في عمليات تفجير أثناء تقدمهم لتحرير الرمادي.. فماذا كانت التعليقات؟

أول تعليق: (إيران دمرت العراق، والأداة هم السياسيون العراقيون).
التعليق الثاني: (كلامك صحيح، حسبي الله عليهم)!

أنا لا أريد الدفاع عن إيران وسياساتها، ولكن أهكذا ينبغي أن يكون رد الفعل على جرائم التكفيريين؟ كيف بات العقل العربي يفكر؟ هذا إن كان يفكر أصلاً، ولم نقل أنه صدى ترديد لما يقوله الآخرون.

• ضياع المعايير:

لقد نجح الإعلام في مسخ العقل العربي وتشويهه بحيث ما عاد يميز بين الضحية والجلاّد، تماماً كما مُسخ من قبل حين قُتل عمار بن ياسر في المعركة، فقيّل إن الذي قتله هو مَنْ زجّ به في المعركة! وحين قُتل الحسين فقيّل أنه قُتل بسيف جده! وها هو الرأي العام العربي يتيه من جديد تحت وطأة التضليل الإعلامي، فيُنحّي الكيان الصهيوني الإرهابي عن منصة الإجرام وموقع العدو الأول للأمة، ويوجّه بوصلة عدائه في الاتجاه الخاطيء، وليتحول الكيان الغاصب إلى حليف للعرب، وتتوجه بنادق الحرب لتدمير ما تبقى من مقدرات الأمة ومنابع قوتها، في الوقت الذي تتسرب فيه مقولة أن مشروع تدمير المسجد الأقصى برّمته قد نضج، وأن ما جرى هو جس نبض في هذا الاتجاه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

معادن الرجال

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٢٢).

تحدث هذه الآية الشريفة عن موقف المؤمنين في مواجهة جيش الأحزاب الرهيب الذي شكله تحالف قريش مع العديد من القبائل العربية حتى بلغ تعدادهم ما يفوق العشرة آلاف مقاتل.

• وجهان مختلفان:

فقد أثبت أولئك المؤمنون مصداقيتهم في هذا الموقف العصيب، تماماً كما قال «تعالى» في وصفهم بعد آية من الآية السابقة: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (الأحزاب: ٢٣).

وفي المقابل هناك الصورة المخزية لمجاميع أخرى أثبتت فشلها الذريع في هذا الاختبار العملي: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا، وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا

مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا، وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ الشَّرْكَ ﴿لَا تَوَهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ (الأحزاب: ١٢-١٣).

وفعلًا عند الشدائد تظهر معادن الرجال! فكثيرون هم الذين يملئون الدنيا بالادعاءات: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ (المنافقون: ٤)، ولكن كم منهم يُترجم تلك الادعاءات إلى حقيقة واقعية عند المحن؟

• في مواجهة الغزو الصَّدَّامي:

أبان الغزو الصَّدَّامي لدولة الكويت قبل ربع قرن، كشفت المحنة العصبية معادن رجال الكويت، لاسيما شباب الداخل الذين فجروا طاقاتهم وإبداعاتهم لمواجهة الظرف الاستثنائي الذي يتعاملون معه لأول مرة. ولعل الأمر كان مفاجئًا لكثيرين، فما كان يُتوقع من هذا الإنسان المترف المرفه أن يؤقلم نفسه وبكل سرعة مع المتغيرات الطارئة، فيحمل السلاح، ويقاوم، ويسخر نفسه لخدمة المجتمع في شتى المجالات، حتى في مجال جمع القمامة وما أشبه ذلك من مهام وخدمات ما كان يطرأ على بال أحد أنه سيقوم بها في يوم ما.

فتلك المحنة أظهرت المعدن الأصيل للشباب الكويتي.. وبقيت تلك الروح وذلك العنفوان إلى ما بعد تحرير الكويت من براثن الغزو الصَّدَّامي،

ولكن للأسف فإن عودة العقلية التقليدية في إدارة الدولة لم تستطع استثمار ذلك، فماتت روح الكفاح، وخبا عنفوان الشباب.

• اختبار آخر:

وهذه الأيام، مجدداً، تقف الكويت أمام مشهد رائع آخر من مشاهد تفجر الطاقات الشبابية وإبداعاتهم إخلاصاً لله، وحباً للوطن، ووفاءً للمجتمع.

فقد تداعى أبناؤنا - دون تردد - لتشكيل مجاميع حماة الصلاة عقب التفجير الإجرامي لمسجد الإمام الصادق «عليه السلام» في بدايات شهر رمضان، على الرغم من صعوبة الظروف وشدة المحنة.

ومن المؤسف أن تسطر بعض الأعلام الإعلامية كلمات التشكيك والتشويه والتعريض بهؤلاء الشباب الذين تخلّوا عن ساعات الراحة والتكاسل والترفيه، ليقفوا تحت أشعة الشمس الحارقة وهم صائمون، معرضين أنفسهم لخطر الموت، ومسترخين حياتهم لتأمين سلامة المصلين في المساجد.

علماً بأن كل ما قاموا به من خطوات أمنية وإجراءات وقائية، كانت بعلم وبالتعاون والتنسيق مع الجهات الأمنية المختلفة، وهي ما زالت كذلك إلى هذه الساعة.

وقد شهدتم كيف قامت الجماعات التكفيرية الإرهابية بتفجير آخر لبيت

من بيوت الله في مدينة «أبها السعودية»، لتقتل المصلين الأمنيين، مؤكدة عزمها على الاستمرار في جرائمها المخزية، وفتحة الباب أمام احتمال تكرار محاولاتها في الكويت أيضاً.

ومع هذا نجد عزم وإصرار شبابنا حماة الصلاة على التواجد اليقظ والدائم فجراً وظهراً وليلاً لدرء نوايا الشر عند المعتدين، وبمعية رجال الأمن.. حفظ الله الجميع.

• فلتصمت الأصوات النشاز:

إننا في الوقت الذي نطالب فيه الجهات الرسمية والشعبية بتشجيع وتكريم وتنمية روح المسؤولية في هؤلاء الشباب - حماة الصلاة - الذين يتحدثون خطر الموت الحقيقي بكل شجاعة وتصميم، فإننا نطالب تلك الأقلام المسيئة التي لا تخدم مصلحة الوطن بالكف عن إطلاق المقولات المشككة بإخلاص أبنائنا، كما فعل البعض من قبل حين شككوا في إخلاص الصامدين في وجه الغزو الصدامي تحت وطأة أشد الظروف والقمع والإرهاب وشحة الموارد، متهمين إياهم بالعمالة للغزاة، بينما كان بعض أصحاب تلك التصريحات يتنعمون في فنادق الخمس نجوم.

أبناءنا، يا حماة الصلاة، لا تلتفتوا إلى الأصوات النشاز، وكونوا مع الله، يكن الله معكم، وردّوا بجهودكم المخلصة شيئاً من الجميل إلى هذا الوطن الذي أنعم الله به علينا، فإنّ الوفاء من شيم الكرام.

دعوة إمام الأزهر الشريف

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ «آل عمران: ١١٠».

قيمة كل أمة بالنسبة إلى الأمم الأخرى، هي في المبادئ التي تؤمن بها من جهة، وفي الدور الكبير الذي تقوم به في حياة الناس، وهو ما لخصته الآية السابقة.

• تحقيق الخيرية:

فالخيرية هنا ليست خيرية ذاتية كما تصور اليهود والنصارى حين قالوا: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ «المائدة: ١٨»، بل هي خيرية المضمون والدور العملي الذي تقوم به.

ومتى ما تخلت الأمة عن متبئاتها وعن دورها الإيجابي الفاعل على الأرض في التغيير إلى الأحسن، فإنَّ هذا يعني تخليها عن موقع الخيرية، والعكس صحيح، فبمقدار تمسكها بتلك المبادئ وفاعليتها التغييرية، من

خلال البحث عن مواطن الخلل والفساد والقيام بدور الإصلاح، كلما حافظت على وسام الخيرية المهدى إليها من قبل الله «سبحانه وتعالى».

• أصالة مشروع الوحدة:

ومن أهم المشاريع التي تتحقق من خلالها «الخيرية» ويفترض بالأمة الإسلامية أن تنهض بها وتأتي على رأس قضايا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في واقعنا المعاصر هي معالجة موضوع «التعايش.. والتقارب.. والوحدة» بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم، معالجة فكرية حقيقية، وعملية مدروسة.

فقد قال «تعالى»: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ «آل عمران: ١٠٣-١٠٤».

• مبادرة إمام الأزهر:

منذ عدة أشهر أطلق فضيلة شيخ الأزهر د. أحمد الطيب مبادرته لعقد مؤتمر للحوار الإسلامي الإسلامي يجتمع فيه علماء المذاهب الإسلامية المختلفة بهدف تقريب وجهات النظر حول قضايا الرئيسة للأمة، وفي محاولة لمواجهة التعصب المذهبي، والتخفيف من حدة الصراع الطائفي.



ولاشك أن كل غيور على الإسلام والمسلمين يسعد لسماع مثل هذا الخبر، وهو إن تحقق فسيكون خطوة إيجابية وسينفخ شيئاً من روح الأمل في هذه الأمة التي باتت تحدّق في المستقبل المظلم والمجهول الذي تنحدر إليه بشكل مخيف... ولي بعض الملاحظات في هذا الشأن:

• أولاً، نقلة نوعية:

لقد اعتاد العالم الإسلامي خلال العقود الماضية أن تكون الدعوة لعقد هكذا مؤتمرات بمبادرة من الأطراف الشيعية المختلفة، دولة أو حوزة أو شخصية علمائية أو جماعة سياسية أو مؤسسة دينية وأمثال ذلك، ولكن أن تكون الدعوة هذه المرة:

١- من إخواننا أهل السنة، بل ومن قمة الهرم المتمثل في إمام الأزهر.
٢- وأن يكون التخطيط لحضور علماء المذاهب على مستوى رفيع وفاعل،
وليس بحضور وتمثيل هامشي.

٣- وأن يتم ذلك في الظروف العصيبة التي تعيشها الأمة وتعاني منها
معاناة استثنائية ودائمة.

فإن هذه المعطيات مجملها تؤكد على أن هذه الدعوة تمثل نقلة نوعية
تستدعي إيلائها أهمية كبرى. وأتمنى أن نشهد تفاعلاً جاداً، وعلى
مستوى رفيع، وأطروحات عملية، تُنجز هذا المؤتمر ولو باعتباره خطوة
أولى متجددة في طريق إصلاح حال الأمة، وإعلاء الصوت التقريبي على
الصوت التكفيري.

• ثانياً، ضرورة الحيادية:

نتطلع أن يستطيع هذا المؤتمر الحفاظ على حياديته العلمية والعلمائية
بعيداً عن الأجندات والمصالح السياسية الضيقة للدول المختلفة.. فإن
من أهم أسباب فشل هكذا مشاريع أن يتم ربطها بالمصالح والأجندات
السياسية للدول الراعية والمُمثلة، ففي السياسة لا يوجد صديق دائم
ولا عدو دائم.

بينما هكذا مشروع تقريبي وحدوي إسلامي يجب أن يكون منطلقاً
من الإيمان بأصالة وحدة الأمة انطلاقاً من أصالة الإيمان بتوحيد الله،

أي أن يكون مشروعاً بنوياً واستراتيجياً، وليس مجرد مشروع تكتيكي ينطلق من مراعاة الظروف الآنية والضرورات المرحلية فقط.

• ثالثاً، التطبيق العملي:

من المهم جداً أن يبحث المؤتمرون في كيفية إعداد مشروع بناء الإنسان المسلم الوحدوي، ونأمل أن يكون المشاركون في المؤتمر يؤمنون بهذا أصلاً، لأننا شهدنا خلال المشاريع السابقة كيف تنطلق الخطب الرنانة والأطروحات الجميلة في هذا الإطار، حتى إذا انفضَّ المؤتمر، وخلا كلُّ واحد بجماعته، أو عاد إلى موطنه، عادت خطابات الاستسخاف بمتبنيات المذهب الآخر، والطعن في مقدساتهم وتوجيه التهم الباطلة وأمثال ذلك من معطيات تدمر كل ما تم الاتفاق عليه.

ولذا من المهم أن يضع العلماء والمفكرون المسلمون منهجاً جديداً يؤصّل لعنوان الأخوة الذي ذكرته الآية القرآنية المباركة: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ» (الحجرات: ١٠)، باعتبار أن المعنيين في الآية هم المسلمون الذين تشهّدوا الشهادتين دون تمييز في انتمائهم المذهبي.

وبعد ذلك تُبنى على هذا الأساس سائر المعارف الخاصة بالموضوع، ويُعمل على غرسها في العقلية الإسلامية، من خلال المنبر والكتاب والمنهج المدرسي والحوزات العلمية ووسائل الإعلام المختلفة.

وأتصور أنه لا يمكن أن يتم ذلك ضمن الأطر المعرفية القائمة حالياً في

المؤسسات والجامعات والحوزات الدينية، والتي تمثل الأساس في تقديم الفكر الإسلامي، ولذا من الضروري أن تبدأ الجهود من هذه النقطة.

• رابعاً، ممثلات دائمة للمرجعيات:

أن يتم الاتفاق على تشكيل ممثلات دائمة في الحواضر العلمية الكبرى كالأزهر الشريف وحوزة النجف الأشرف وغيرها يقوم عليها علماء ومفكرون وحدويون يعملون على التواصل الدائم مع المرجعيات الدينية والعلماء، ويشرفون على المشاريع البينية، ويعالجون أولاً بأول أي تحدٍّ أو خلل، تماماً كما تقوم البعثات الدبلوماسية بين الدول بهذا الدور الحيوي والحساس. فالقطيعة الطويلة بين علماء ومفكري المذاهب، والتخاطب من بعيد، لن يحقق الأهداف المرجوة، بل وسيفسح المجال لأعداء المشاريع التقريبية بأن يُمرّروا مشاريعهم التمييزية والإقصائية والتكفيرية، ولأقل مشكلة أن تتحول إلى كرة الثلج التي تتدحرج حتى تتحول إلى قوة تدميرية هائلة.

• خامساً، نحو نقد التراث:

حتمية مواجهة مواطن الخلل بكل شجاعة وصراحة وقوة، لاسيما ذلك المتعلق بالإرث الفقهي والعقدي والتاريخي، وعدم المكابرة، فمن صفات الإنسان المؤمن أن يكون منصفاً، قال «تعالى»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ «النساء: ١٣٥».

وهذا يستدعي خطوات علمية جريئة ناقدة للتراث، كما يستدعي خطوات عملية تقوم على مواجهة الأصوات النشاز التي تنطلق من خلال الفضائيات ووسائل الإعلام والمعلوماتية، وتقديم الخطاب البديل القائم على الحجة والدليل.

• محاربة الأيدي الخفية:

إننا في الوقت الذي نرحب ونشجع ونؤكد فيه على أهمية عقد مؤتمر الحوار الإسلامي - الإسلامي الذي دعا إليه فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف، فإننا نتطلع إلى أن يكون هذا المؤتمر منطلقاً متجدداً وجاداً في طريق التخفيف من حدة الاحتراب المذهبي والانقسام الطائفي، وفي مواجهة المنهج التكفيري الإقصائي الذي بات يمثل الصوت الأعلى في الخطاب الإسلامي، واللاعب الأبرز على ساحة التجاذبات السياسية.

ولا يخفى أن كثيراً من أوجه هذا الصراع وإن كانت واجهتها التعصب والانتصار لهذا المذهب أو ذاك، إلا أن الأيدي الخفية التي تحركها وتمولها إنما تريد أن تقطف الثمار التوسعية، أو تخدم الأجندات الاستكبارية، أو تصب في مصالح السياسات الخاصة بهذه الدولة أو تلك لضمان بقاء حكمها أو توسيع نفوذها ولو أريق في هذا الطريق آخر نقطة من دماء الأبرياء.

قال «تعالى»: ﴿مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ «الإسراء: ١٥».

في القرآن الكريم في هذه الآية وأربع آيات أخرى قريبة من مضمونها حديثٌ عن قاعدة من قواعد العدالة في الإسلام، سواء في ما له علاقة بالتبعات الدنيوية لما يختاره أو يفعله الإنسان، أو بالتبعات الأخروية على مستوى المسؤولية أمام الله «تعالى».

• العدالة الإلهية:

فقوله ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ يُقرر أنه لا يجوز أن يُحاسب البريء أو يُعاقب بذنب المجرم تحت تأثير آية علاقة من قرابة أو صداقة أو غيرهما، ما لم يكن له دخلٌ في جريمته. وبنفس هذا المبدأ يعامل الله عباده يوم القيامة أي على أساس الفردية في المسؤولية.

نعم، هناك استثناء واحد له علاقة بإضلال الآخرين، فإن صاحب السنة

السيئة يتحمل مع العامل بها مسؤولية هذا الأمر: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (النحل: ٢٥).

• في العهد الجاهلي:

في الجاهلية كان الأمر على خلاف ذلك، ولذا كانت مسألة الثأر من القاتل وأقربائه وعشيرته - على سبيل المثال - مسألة مقبولة، بل وتصل إلى حد الالتزام العشائري، حتى أنه كان من أمثالهم: (الآخذ بثأر أبيه بعد أربعين سنة مستعجل)! إذ ينبغي أن يظل هذا الإنسان حاملاً للثأر مهما مرَّت السنوات وتَقَادَمَتِ الأزمنة، حتى أنه يُعَاب على رجولة الرجل إن لم يُقَدِّم على ذلك.

أما المبدأ القرآني العقلاني فقد نسف هذا المفهوم الجاهلي، ووضع أحكاماً شرعية تخص القصاص والديات وأمثال ذلك، وضمن قنوات قانونية بالاحتكام إلى أهل الاختصاص العدول.

• مع التشريعات السماوية:

ولم يقتصر الأمر على الجاهليين، بل حتى في المسيحية نجد شيئاً من هذا الخلل، وهي مقولة أن ذرية آدم «عليه السلام» يحملون خطيئته حين أكل من الشجرة وأخرج من الجنة، وأن المسيح «عليه السلام» صُلب وتعذَّب كي يتحمَّل هذه الخطيئة الأولى ويخلص الناس من هذه التبعة.. هذا يتعارض مع قاعدة ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.

وفي العهد القديم ما يصب في نفس اتجاه المنطق القرآني حيث جاءت العبارة هكذا: (لا يُقْتَل الآباء عن الأولاد، ولا يُقْتَل الأولاد عن الآباء، كلُّ إنسانٍ بخطيئته يُقْتَل) «سفر التثنية: ١٦/٢٤».

نعم مشكلة اليهود أنهم يميّزون بين اليهودي والأغيار، إذ يعتبرون أن هذا القانون وأمثاله من القوانين والأخلاقيات كالعدالة والأمانة والصدق والإخلاص لازمة في إطارهم الخاص أما مع الأغيار فالمسألة تختلف.

وهذا بدوره مما رفضه الإسلام معتبراً أن القيم الإنسانية والأخلاقية لا تتجزأ، وهو ما يجب أن ندركه ونلتزم به، سواء على صعيد التعامل مع مَنْ يماثلوننا أو يختلفون معنا في الدين أو في المذهب أو في القومية أو في الانتماء العشائري أو غير ذلك من العناوين.

• الدستور الكويتي:

وقد نصّ الدستور الكويتي في المادة ٣٣ منه على أن: (العقوبة شخصية)، وجاء في المذكرة التفسيرية للدستور بياناً لهذه المادة: (نصت هذه المادة على كون العقوبة شخصية، وذلك تطبيقاً لقوله «تعالى»: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾) وهذه مفردة من المفردات التي تجعلنا نعتز بهذا الدستور.

• تبعات خلية العبدلي:

ولديّ هنا وقفة مع تبعه من تبعات وآثار القضية الأمنية الأخيرة التي تُعرف باسم «خلية العبدلي».

فقد عمد البعض - من خلال وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي - إلى توسيع دائرة الاتهام والهجوم اللاأخلاقي لتشمل أفراداً وجماعات، بل وتخوين طائفة بعينها تمثل جزءاً أصيلاً من هذا الوطن في عمقه التاريخي إلى المستوى الذي قال فيه أمير البلاد: (هذولا عيالي).

حسناً فعلت الجهات الرسمية بمنع تداول أي شيء له علاقة بهذا الإشكال الأمني إلا من قبلها، حفاظاً على اللحمة الوطنية ودرءاً للمفاسد... وقررت إحالة العشرات من المسيئين إلى التحقيق والنيابة. وهذا تصرف حكيم من أصحاب القرار، فقد اشتعلت وسائل التواصل الاجتماعي بنار الطائفية، على الرغم من قرب العهد من حدث تفجير مسجد الإمام الصادق «عليه السلام» وما تبع ذلك من تجليات وطنية رائعة. فما الذي جرى حتى انقلبت الصورة رأساً على عقب، واشتعلت الحرب الطائفية الكلامية بعد التجلي الرائع للوحدة الوطنية في أعقاب تلك الجريمة.

• خطر سطحية المعالجة:

الحقيقة - كما ما نبّهت إلى ذلك بعد وقوع الجريمة الإرهابية - أن المعالجة العاطفية والآنية والسطحية لن تحل أصل المشكلة، بل لابد من خطوات عملية ومدروسة وجذرية.. وتأتي المعالجة التربوية والتعليمية على رأس تلك المعالجات.

لماذا تُغيب قاعدة ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ عندما يخص الأمر المواطنين الشيعة؟ بل ما السبب وراء التشكيك في ولائهم لوطنهم مع كل إشكال أمني أو إثارة طائفية؟ لماذا تتداعى هذه الفكرة إلى الأذهان بينما لا نجد لها مثيلاً لو انعكست الآية وكان الأمر يخص إخواننا من أهل السنة؟

لعل جزءاً من المشكلة يعود إلى ترسخ هذه الفكرة في اللاوعي، كنتيجة طبيعية لتغيب دور الكويتيين الشيعة على المستوى الإعلامي والتعليمي في بناء هذا الوطن جنباً إلى جنب مع إخوانهم من أهل السنة.

أنا لا أريد أن أطرح المسألة الوطنية من منظور طائفي، فهذا شيء سقيم وسلبي، ولكن أريد أن أبين خلافاً يؤدي إلى حصول مثل هذا الشرخ المتكرر، لكي تتم معالجته جذرياً.

• حقائق تاريخية:

وأقدم بعض الأمثلة من حقائق التاريخ - التي يجهلها كثيرون - كنماذج على هذا التغيب السلبي، وليس من باب المنّة على هذا الوطن الذي أعطانا الكثير، وينتظر منا الكثير، بل لأجل تشخيص الخلل ومعالجته بما يعود عليه بنتيجة إيجابية.

في عام ١٧٨٢ هـ هجم بنو كعب على الكويت، فما كان من المواطنين - شيعة وسنة - إلا أن هبوا للدفاع عن البلد، وأسماء بعض الشهداء تؤكد مشاركة المواطنين الشيعة في الدفاع عن الوطن.



وإذ كان الغزاة - بحسب انتمائهم المذهبي - من الشيعة، فقد طلب شيعة الكويت من أمير الكويت آنذاك الشيخ عبدالله الصباح، أن يكونوا هم في المقدمة حتى لا يكون دافع بني كعب في القتال أكبر تحت تأثير العنوان المذهبي الذي يُوظف عادة في مثل هذه الحالات.

وهكذا نجد الدور الآخر للشيعة في معركة الجهراء، والذي تمثل - بالتنسيق مع أمير الكويت الشيخ أحمد الجابر - في حماية كويت الداخل، حيث اجتمعت منهم فئة في الحسينية الخزعية بقيادة العالم الديني السيد محمد مهدي القزويني وعيسى كمال الدين العلوي، كما اجتمع العالم الديني الميرزا علي الإحقاقي بفئة أخرى، وتم الاتفاق مع أمير البلاد على أن يتولى الكويتيون الشيعة حراسة المدينة.

وتتكرر هذه الصور مع الغزو الصدامي عام ١٩٩٠م، بما يمثل شاهداً حياً ومعاصراً على ما نقول، وإن كنا نتمنى لو خُلدت أسماء الشهداء بتسميات الطرقات، على الأقل أسوة بالتسميات التي ظهرت خلال الأشهر الماضية دون معايير واضحة، وأثيرت عليها إشكالات عديدة حتى توقفت.



وفي سنة الهيلق ١٨٦٧م، حيث حلت المجاعة في الكويت، لجأ أهل القرى إلى داخل السور، فما كان من أهل الكويت - بمن فيهم العوائل الشيعية - إلا أن فتحو أبواب بيوتهم ودواوينهم لاحتضانهم وتأمين احتياجاتهم إلى نهاية الأزمة.

وعلى مستوى التنمية، نجد دور شيعة الكويت البارز في المجال الاقتصادي والتربوي والإعلامي والثقافي والسياسي وغيرها من المجالات، ومن أمثلة ذلك تأسيس المدرسة الجعفرية سنة ١٩٣٧، وتأسيس أول إذاعة محلية سنة ١٩٤٨م والتي عُرفت باسم «إذاعة شيرين»، وأمثلة عديدة لا يسعف المجال لذكرها.

ولك أن تتخيل لو أن هذه الصور قدّمت بكل وضوح للطلاب في المدرسة وفي الجامعة، ومن خلال وسائل الإعلام الرسمية، لا لترسيخ

الروح الطائفية، بل للقضاء على هذا الخلل في الوعي واللاوعي عند مَنْ تتداعى لديهم فكرة عدم ولاء الشيعة الكويتيين لوطنهم.

● محنة واختبار:

الكويت مجدداً أمام محنة واختبار.. ومسؤوليتنا كمواطنين - شيعةً وسنة - أن نتعامل مع هذه المحنة بحكمة وبروح وطنية، بعيداً عن العناوين الطائفية والروحية العشائرية التي تمزق وتدمر وتترك أثارها السلبية على مدى بعيد.

وكما قلنا بعيد التفجير الإرهابي لمسجد الإمام الصادق «عليه السلام» أن الكويتيين من أهل السنة لا دخل لهم بما جرى، وأنه لا يجوز لأحد طرح المسألة من منظور طائفي، لأن الإرهاب لا يمثل ديناً ولا مذهباً، بل هو سلوك إجرامي يرتدي لباس الدين أو المذهب، تلبساً على الناس وخداعاً، فكذلك نقول اليوم أنه لا يحق لأحد أن يحول القضية الأمنية الأخيرة إلى وسيلة لاتهام الكويتيين الشيعة بعدم الولاء لوطنهم الذي لا يترددون في التضحية لأجله بأنفسهم وأبنائهم وأموالهم.

ثم إن على الجهات المعنية التفكير بجديّة وباستخدام الأساليب التربوية والعلمية لمعالجة تغييب الدور الشيعي في بناء الكويت بالصورة التي باتت تؤدي إلى اتهامهم الدائم بعدم الولاء للوطن مع كل إثارة أمنية أو طائفية.

العامل الغيبي لتحقيق الوحدة

قال «تعالى»: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ، وَالْأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ «الأنفال: ٦٢-٦٤».

خلال عقود مضت، سعى العرب والمسلمون لتحقيق صور مختلفة من الوحدة، أحياناً من خلال تشكيل أحزاب تدعو إلى الوحدة على أساس قومي عربي، أو من خلال البحث عن نظام مستحدث - كالاشتراكية - يتم تعميمه على الدول ضمن صياغة عربية معينة، أو من خلال الدعوة إلى إقامة خلافة إسلامية تلغي الحدود بين الدول الإسلامية.. وغير ذلك من الصور التي عايشناها.

ولكن هل نجحت أي من تلك الأطروحات في تحقيق وحدة عربية أو إسلامية؟ بالطبع لم يتحقق شيء من ذلك، بل جاءت النتائج عادة معكوسة وعلى نقيض الغرض، حيث سرعان ما تحولت تلك الجهود

إلى صور من العداوة والبغضاء بين الرفقاء، ووصلت أحياناً إلى حد الاقتتال والحروب.

• نموذج حزب البعث:

حزب البعث العربي الاشتراكي نموذج على ذلك، فقد كان من أهداف هذا الحزب تحقيق وحدة عربية، وكان شعاره (أمة عربية واحدة، ذات رسالة خالدة)، وأهدافه: (وحدة، حرية، اشتراكية).

ولكن ما حصل هو أن الحزب انقسم على ذاته عام ١٩٦٦ إلى فرعين أحدهما عراقي والآخر سوري، ثم انقسم العراقي على نفسه، والسوري على نفسه، وترسخت حالة العداوة والبغضاء بين الأطراف بصورة تتجاوز - أحياناً - معاداتهما مع من يخالفهما في الإيديولوجية!

• قصة نجاح:

أما قصة نجاح رسول الله «صلى الله عليه وآله» في تحقيق التآلف والوحدة والانسجام، وخلق أمة واحدة هي أمة الإسلام انطلاقاً من المجتمع العربي الجاهلي الذي كان الاقتتال الداخلي وقطع الطريق وإثارة العصبية هو صبغته العامة، أما هذه القصة فهي قصة مختلفة تماماً، يحكي عنها القرآن الكريم حيث قال «تبارك وتعالى»: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

الآيات تخبرنا أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» بعظمته وحكمته وأخلاقه

احتاج إلى المدد الإلهي الكبير كي يحقق ما حققه، ولولا هذا المدد لما تحقق ما تحقق.. والآية واضحة وصريحة في ذلك.

هذه الحقيقة غائبة اليوم عن أذهان الكثيرين، فالعامل الغيبي في المسألة عامل حاسم، ولكن - بالطبع - ضمن المعادلة الإلهية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).

أي أن هذا العامل لا يتحقق إلا من خلال عمل تغييري داخلي على مستوى الأفراد.. تقوى وإخلاص وصدق نية وتوكل على الله، وحينها يأتي التغير من الله على المستوى العام لتحقيق النتيجة الكبرى. فالمسألة أبعد من مجرد تنظير وتشكيل أحزاب ووضع دساتير وعقد مؤتمرات.

إن تأليف القلوب شيء، وتوحيد الأفكار والعقول شيء آخر.. ورب القلوب هو الذي بيده مفاتيح القلوب.. قد تلتقي الأفكار، وتتشارك العقول الرأي، إلا أن هذا لا يكفي، لسببين.. السبب الأول: أن العقول من طبعها الميل إلى الجدل والنقاش والتفريع والتوسع في الآراء، وهذا من شأنه خلق الاختلاف وفتح باب التنازع.

• الشخصية وفشل المشاريع:

والسبب الثاني لأن النفوس تميل إلى الشخصية، وقد يتم ذلك في لحظة ضعف، والنتيجة المحتملة مجدداً هي الاختلاف والتنازع والتفرق. وما دام هناك شخصية وتحيزات وأهواء وتضارب مصالح، فإن هذه

الحالة من العداوة والتشاحن والتقاتل ستطفو إلى السطح ولو بعد حين، فالفرد نادراً ما يستطيع أن يتجرد عن شخصانيته ويتغلب على أهوائه. ثم إنه إن نجح في ذلك، فلن يكون هناك ضمان لأن ينجح رفاقؤه في ذلك أيضاً، وبالتالي سيقومون هم بإثارة المشاكل وطرح العقبات وشحن الأجواء وخلق الصراعات.

• نسيان الوصية الإلهية:

الآيات السابقة بعد بيان هذه الحقيقة تقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وهي وصية إلهية دخلت عندنا في إطار النسيان. فالبعض اليوم يتطلع إلى قوى عظمى من هذا المعسكر أو ذاك، ويجد فيها كل الأمل في أن تكون العنصر الحاسم الذي سيميل كفة على أخرى في هذا الصراع أو ذاك.. ولربما شغف بها حباً وتغزلاً.

بل إن البعض صار يقسم تلك القوى وفق العنوان المذهبي، فهذه القوة العظمى مع السنة، وتلك مع الشيعة، في غفلة عن أن هذه القوى لا يهمها إلا مصالحها، وإذا وقفت اليوم موقفاً معك وفق تلك المصالح فإنها ستبيعك غداً في أسواق النخاسة السياسية. ولذا تأتي الآية السابقة لتقدم الوصية الإلهية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لا تتطلع إلى أحد خارج هذه الدائرة، ولا تجعل آمالك خارج هذا النطاق.

نعم هناك سياسة وهناك تبادل مصالح وهناك تعايش وهناك تبادل

اقتصادي وهناك تحالفات أمنية وأمثال ذلك، ولكن هذا كله شيء وأن تهفو القلوب وتُعَدَّ الآمال وتُقَسَّم الولاءات على هذا الأساس فهذا شيء آخر. ومن هنا كان أصحاب البصيرة من علمائنا يحذرون دائماً من هذه الحالة.. كان الإمام الخميني «رحمه الله» ينبّه إلى عدم الانخداع بمواقف وكلمات أيّ من تلك القوى، ويعتبر أن كلاً منها أسوأ من الأخرى.. وكان السيد فضل الله «رحمه الله» يؤكد على أن تلك القوى لا تفرّق بين سنة وشيعة، وأنها ليست مع هؤلاء ولا مع هؤلاء.

• مسؤولية كل مسلم:

إننا إذ نستقبل السنة الهجرية الجديدة ونستحضر السيرة المباركة لرسول الله «صلى الله عليه وآله» الذي يمثّل الإيمان بنبوّته الركيزة الثانية بعد الإيمان بوحداية الله عزوجل، فإننا نسترجع القيم والمبادئ التي نادى بها، ونسترجع الحقائق الإيمانية التي نغيّبها - أحياناً - غفلةً أو جهلاً أو استعلاءً أو اتباعاً لهوى. لقد أخبرنا القرآن الكريم أن السعي لوحدة الأمة مسؤولية كل مسلم، وأن الله يبارك هذه الجهود ويثمرها ويمدّها غيبياً إن كنا صادقين في سعيها، ومخلصين له في حركتنا. فليكن أملنا بالله «سبحانه» قوياً، ولنعمل على أن يكون الله هو مصدر قوتنا ومنبع عزتنا ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿آل عمران: ١٦٠﴾.

قَسْتَن لَّا تُنْجِيَانِ

٣٤

في القرآن الكريم حديث متعدد عن الخاسرين يوم القيامة.. والخاسرون في يوم القيامة أصناف.

• نماذج متعددة:

من بين هذه الأصناف: نموذج الذين اتخذوا من المخلوقات آلهة يعبدونها ويتولونها من دون الله، وجحدوا الآخرة، وواجهوا رسل الله بالموقف اللامسؤول، قال «سبحانه»: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا، قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا، أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا، ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوءًا﴾ (الكهف: ١٠٢-١٠٦).

النموذج الآخر نموذج الذين استسلموا لشهواتهم وملذاتهم فارتكبوا

الفواحش وأهملوا مسؤولياتهم العبادية نحو الله، ومسؤولياتهم الشرعية والأخلاقية نحو العباد، إذ بخلوا بما رزقهم الله فلم ينفقوا منه في موارد الخير. قال «تعالى»: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ (مريم: ٥٩)، وقال «تعالى»: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ، قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلِينَ، وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ، وَكُنَّا نَحْوُضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ، حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ (المدثر: ٤٢-٤٧). وللتكذيب بالآخرة دور في ما صدر عنهم.

ونموذج ثالث هو نموذج التابعين الذين يُسلمون زمام أمورهم بيد غيرهم ويجعلون أنفسهم في موقع التبعية، ويبررون أفعالهم التي يعلمون أنها خاطئة أو إجرامية بأنهم لم يختاروها، بل هم مجبورون عليها من موقع التبعية لأصحاب القوة والنفوذ، وأنهم لا حول لهم ولا قوة.. وبالتعبير الدارج: (أنا عبدٌ مأمور). قال «تعالى»: ﴿وَإِذْ يَتَحَايَوْنَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ، قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ (غافر: ٤٧-٤٨).

في يوم القيامة يتعلق هؤلاء الغارقون حين يشهدون مصيرهم الخطير بقشتين.. فما هاتان القشتان؟ وهل ستجديان نفعاً؟

● القشة الأولى:

قشة المتبوعين في الدنيا من أصحاب القوة والنفوذ. والقرآن يحكي

عن هذا المشهد في أكثر من موقع، من بينها: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (إبراهيم: ٢١) .

لقد كنتم تتوسطون لنا أحياناً في الدنيا إذ كانت لكم وجهة وقوة... وكنتم تُلقون إلينا ببعض فتات موائدكم إذ كنتم تملكون المال الوفير... ثم نحن جماعتكم، وفعلنا ما فعلنا في الدنيا من جرائم وموبقات من أجلكم... ولولا ذلك لما بسطتم نفوذكم وحققتم مطامعكم، فهلاً جازيتُمونا على ذلك في هذه اللحظات العصبية؟

﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ (إبراهيم: ٢١)، هذا جواب المتبوعين: إنَّ حالنا وحالكم - اليوم واحد، وليس لنا من سبيل إلى الجنة، ولن يفيدنا اليوم شيء فكيف ننقذكم؟ والنتيجة؟ ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (البقرة: ١٦٦)، كل الروابط تتقطع، وكل العناوين التي كانت تربطهم ببعض تختفي، لا انتماء حزبي ولا قبلي ولا وظيفي ولا غير ذلك.

وإذ لا تنجح هذه المحاولة فإن الضعفاء يحاولون أن يجعلوها شماعة يعلّقون عليها أخطاءهم وجرائمهم: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ (الأحزاب: ٦٧) ولكن تفشل محاولتهم من جديد. وحينها يأتي الندم والرغبة في الانتقام بصور مختلفة، منها: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ

اتَّبِعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿البقرة: ١٦٧﴾ ومنها: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ ﴿الأحزاب: ٦٨﴾.

• القشة الثانية:

قشة الشيطان. الأضواء يوم القيامة ستكون مسلطة على الشيطان، فهو أبرز أبطال قصة الصراع بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، والعدل والظلم في الحياة الدنيا.. ويتعلق الغارقون بقشة تحميله كامل المسؤولية لما جرى لهم، وللمصير الذي ينتظرهم.

وكانهم هنا يقولون أنهم كانوا كالمجبورين وكالأدوات التي لا تملك الاختيار، وكل المسؤولية تقع على الشيطان، وقد سلطته علينا يا رب، فما ذنبنا؟ فماذا يقول لهم الشيطان حينذاك؟ ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِمَا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي منقذكم وناصركم ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي﴾ ﴿إبراهيم: ٢٢﴾.

وهذا ما أشار إليه الإمام الحسين «عليه السلام» انطلاقاً من القرآن، وهو في مجلس جمعه بمعاوية، ولعل ذلك حين جاء المدينة ليروج لحكم يزيد ف قيل له: (إن الناس قد رموا أبصارهم إلى الحسين، فلو قد أمرته يصعد المنبر فيخطب، فإن فيه حصراً، وفي لسانه كلاله، فقال لهم معاوية: قد

ظننا ذلك بالحسن، فلم يزل حتى عَظُمَ في أعين الناس وفَضَحنا. فلم يزالوا به حتى قال للحسين «عليه السلام»: يا أبا عبد الله، لو صعدت المنبر فخطبت.. فصعد الحسين «عليه السلام» المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم صلى على النبي «صلى الله عليه وآله». فسمع رجلاً يقول: من هذا الذي يخطب؟) ولعله من الوافدين على المدينة (فقال الحسين «عليه السلام»: نحن حزبُ الله الغالبون وعترَةُ رسولِ الله الأقربون وأهلُ بيته الطيبون، وأحدُ الثقلين الذَّيْنِ جعلنا رسولُ الله ثانيَ كتابِ الله «تبارك وتعالى»، الذي فيه تفصيل كل شيء، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والمعول علينا في تفسيره، ولا يبطئنا تأويله، بل نتبع حقائقه. فأطيعونا فإن طاعتنا مفروضة، إذ كانت بطاعة الله ورسوله مقرونة، قال الله عز وجل: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾. وقال: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِيَ الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. وأحذركم الإصغاء إلى هتوف الشيطان بكم، فإنه لكم عدو مبين فتكونوا كأوليائه الذين قال لهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ﴾ فتلقون للسيوف ضرباً، وللرماح ورداً وللعمد حطماً، وللسهام غرضاً، ثم لا يقبلُ من نفسٍ إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، قال معاوية: حسبك يا أبا عبد الله فقد أبلغت).

• انتفاضة السكاكين والحجارة:

وما ينطبق على الأفراد ينطبق على الأحزاب والجماعات والدول... فالضعف ليس مبرراً للاستسلام للإرادات الباطلة لأصحاب القوة والبطش من سائر الأحزاب والجماعات والدول.

وعلى الضعيف أن يبحث عن مكان القوة لديه ولدى الآخرين ممن يشاركونه الضعف فيحشدّها ضد من يريد استغلال ضعفه.. كما ويبحث عن نقاط الضعف عند القوي لتكون هي الثغرة التي من خلالها يخفف من وطأته.. إذ لا قوة مطلقة لأي وجود سوى الله «سبحانه وتعالى».

وهذا ما يفعله اليوم الأطفال والشباب الفلسطينيون - لاسيما في القدس المحتلة - وهم يقاومون إجرام الصهاينة والمستوطنين بما بات يُعرف بمقاومة السكاكين والحجارة. ولاشك أن ما تمتلكه الآلة الصهيونية الإجرامية من قوة لا تُقاس - من حيث الموازين المادية - بما لدى هؤلاء الأطفال والشباب، إلا أنهم درسوا أنفسهم، وعرفوا مكان القوة لديهم.. ودرسوا عدوهم الغاصب، وأدركوا نقطة ضعفٍ لديه، وانطلقوا في مقاومتهم بعد أن استسلم الآخرون للغطرسة الصهيونية، أو انشغلوا بقضاياهم، أو انغمسوا في مواجهة مجنونة مع التكفيريين.

• حركة الحسين حركة إلى الله:

إن مسؤولية الانتماء إلى الإسلام تستدعي من كل أحدٍ منا إدراك



حقيقة أن الحسابَ الإلهي في الآخرة حسابٌ فردي، فلن يدافع عنك أحد، بل أنت الذي تدافع عن نفسك أمام الله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (الانفطار: ١٩) فلنفكر ماذا يريد الله منا قبل أن نفكر ماذا يقول الناس عنا.. وقبل أن نفكر كيف ندافع عن أنفسنا أمام الناس، فلنفكر كيف ندافع عن أنفسنا أمام الله، لأن الناس يزولون وكلامهم يزول ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (الرحمن: ٢٧). وقد كانت عظمة الحسين «عليه السلام» - الذي نُحيي ذكرى استشهاده في هذه الأيام - أن حركته كانت لله وإلى الله، فلنكن في نهج الحسين ولتكن حركتنا في الحياة لله وإلى الله لنكون من المفلحين. وتحيّة إكبارٍ وتعظيم لشباب فلسطين وأطفالها المقاومين الذين يقذفون في قلوب الصهاينة الرعبَ، ويواجهون وحشيتهم بصبرٍ وثبات.

الذكاء العاطفي

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ «آل عمران: ١٣٣-١٣٤».

الذكاء العاطفي من المصطلحات الحديثة، ويعرّف بأنه: (مقدرة الشخص على إدارة عواطفه والتحكم فيها وانتقاء الأفضل منها والتي تتناسب مع المواقف التي يتعرض لها الإنسان).

أي أن الذكاء العاطفي لا يقف عند حد إدارتك لعواطفك، بل وقدرتك أيضاً على معرفة عواطف الآخرين، بحيث تستطيع التعبير عن انفعالاتك بما يتناسب مع الموقف والحالة التي تتواجد فيها أو تُفرض عليك.

• مميزات هامة:

من أبرز الصفات التي تطفى على الذين يتمتعون بدرجة عالية من الذكاء العاطفي هي قدرتهم على:

١- تفهّم أوضاع الآخرين والتعاطف معهم عند وقوعهم في المأزق أو عندما تحلّ عليهم المصائب.

٢- تكوين الصداقات المتعددة والقدرة على الإبقاء عليها.

٣- القدرة على فضّ النزاعات والخلافات التي تحصل بينهم وبين الآخرين، أو تلك التي تحدث فيما بين الآخرين، وبمجهود قليل.

٤- القدرة على التعبير عن ما يختلجهم من مشاعر، حتى وإن كانت مشاعر مختلطة.

٥- مواجهة المشاكل بثقة عالية، والتكيف مع كافة المواقف الاجتماعية التي يتعاملون بها.

• الذكاء الاجتماعي:

وهذا يعني أن الذكاء العاطفي يؤدي إلى الذكاء الاجتماعي، فالذكاء الاجتماعي يعني قدرتك على إدارة علاقتك مع الآخرين، حيث تضع نفسك مكانه، ومن ثم تفكر كيف تحب أن تُعامل، وكيف تحب أن يتفاعل معك الآخر، وكيف تحب أن تُحل مشكلتك، وعلى أساس هذه النتيجة تتصرف معه.

ومن هنا فإن ما جاء في الآية من قرار الإنفاق لإعانة الآخرين في مواجهة مصاعبهم وكظم الغيظ والعفو هو نوع من أنواع الذكاء العاطفي والاجتماعي، كونه يشكل موقفاً إيجابياً في التعاطي مع آلام البعض

ومشاعرهم بصورة عملية، والتعامل السليم تجاه أذى البعض الآخر وحمقاتهم. ومن المنظور الإسلامي فإن نتيجة ذلك لا تتوقف عند حد الأثر الدنيوي، بل تتعداها إلى الأثر الأخروي.

وليس بالضرورة أن يكون المتفوق في التحصيل العلمي مثلاً صاحب ذكاء عاطفي، فقد تجد شخصاً عبقرياً في الرياضيات والفيزياء، لكنه دائماً ما يسيء تقدير المواقف الاجتماعية، ولا يفهم عواطف الآخرين، ويفشل في الحفاظ على صداقاته.. كل ذلك بسبب عدم اتصافه بالذكاء العاطفي. وقلة هم الذين ينجحون في الجمع بين الأمرين، وحينذاك يكون لهم تميزاً وتأثيراً وحضوراً قوياً في الساحة.

• الذكاء العاطفي عند الإمام علي:

ومن الذكاء العاطفي أن يمتلك الإنسان القدرة على التحمل في مواجهة المصاعب حين تتراكم عليه بحيث يتغلب على الصورة النمطية التالية: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ [المعارج: ١٩-٢٠].

فيسيطر على عواطفه ويوظف طاقاته في الاتجاه الصحيح لحل مشكلته، أو تحقيق النتيجة المطلوبة، أو مساعدة الغير على ذلك.

وقد التفت الأديب الراحل جورج جرداق إلى هذا الأمر وهو يكتب عن ذكاء وعبقرية أمير المؤمنين «عليه السلام» في جانب من كتابه «روائع نهج البلاغة»، حيث يعرج بعد ذلك على الذكاء العاطفي فيقول: (ومن



مظاهر الذكاء الضابط القوي في نهج البلاغة تلك الحدود التي كان عليّ يضبط بها عواطف الحزن العميق إذ تهيج في نفسه وتعصف. فإن عاطفته الشديدة ما تكاد تُغرقه في محيط من الأحزان والكآبات البعيدة حتى يبرز سلطان العقل في جلاء ومضاء، فإذا هو أمر مُطاع).

• الذكاء العاطفي عند الإمام الحسين:

وهكذا نجد ابنه الحسين «عليه السلام» في الموقف الصعب الذي لا نظير له. فحولَه أجساد أهل بيته وأحبابه وأنصاره.. أي شباب كانوا وأي شبيبة؟ خيرة الناس وعباد أهل الأرض.

منهم مَن يذكره بجده رسول الله «صلى الله عليه وآله» خَلَقًا وَخُلُقًا.. ومنهم مَن يذكره بأبيه عليّ شجاعةً وبأساً.. ومنهم مَن كان وديعة أخيه الحسن. كيف يمكن لأب أن يتحمل مشهد مقتل ابنه بالصورة التي استشهد فيها

علي الأكبر؟ كيف يمكن لأب أن يصبر على نحر طفله الرضيع بين يديه ثم ينهض ليقاتل بكل بأس؟ كيف يمكن لأخ أن يفقد أخاً كالعباس قمر بني هاشم ويراه مقطّع اليدين مفلوق الهامة ثم يشد على القوم مذكراً ببطولات أبيه وشجاعته؟ لو أن كل واحدة من هذه تفرّد بها أحدنا ومات كمدّاً لما كان بملوم، فكيف بالحسين وقد اجتمعت عليه كل هذه الشدائد؟ ولكنه سبط رسول الله وابن أمير المؤمنين وسيد شباب أهل الجنة.. وحرّي بمن كان هكذا أن يمتلك من ذكاء العاطفة ما يسيطر به على نفسه ويقودها في تلك اللحظات الحاسمة لمواجهة أعدائه بكل شجاعة وبأس وقوة، وقد جاء في الطبقات الكبرى لابن سعد أنه: (لما قُتل أصحابه وأهل بيته، بقي الحسين عامة النهار لا يُقدّم عليه أحد إلا انصرف، حتى أحاطت به الرجالة. فما رأينا مكثوراً قط أربط جأشاً منه. إن كان ليقاتلهم قتال الفارس الشجاع. وإن كان ليشد عليهم فينكشفون عنه انكشاف المعزى إذا شد فيها الأسد. فمكث ملياً من النهار والناس يتدافعونه ويكرهون الإقدام عليه. فصاح بهم شمر بن ذي الجوشن: ثكلتكم أمهاتكم ماذا تنتظرون به؟ أقدموا عليه. فكان أول من انتهى إليه زرعة بن شريك التميمي، فضرب كتفه اليسرى. وضربه حسين على عاتقه فصرعه. وبرز له سنان بن أنس النخعي قطعنه في ترقوته. ثم انتزع الرمح قطعنه في بواني صدره. فخر الحسين صريعاً..) إنا لله وإنا إليه راجعون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون والعاقبة للمتقين.

ثورة التوابين



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التحریم: ٨).

ارتبط وجود الإنسان بطبيعته البشرية بالخطأ، ولذا ارتبطت التوبة بالوجود الإنساني.

• توبة آدم وبنی اسرائیل:

آدم «عليه السلام» مثل بداية الوجود الإنساني الحالي، ومشهد التوبة الصادرة عنه بعدما عصى ربه - أيًّا كان تفسير هذا العصيان وطبيعته - حاضر في القرآن الكريم حيث قال «سبحانه وتعالى»: ﴿فَاكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ، ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ (طه: ١٢١-١٢٢).

ويعود مشهد التوبة في القرآن مع بني إسرائيل وموقفهم الشنيع بعبادتهم العجل بمجرد أن تركهم النبي موسى لعدة ليال، وبعد كل ما شاهدوه من معجزات باهرة وخلاص من نير عبودية فرعون وجنوده.

إلا أن هذا المشهد يعود عنيفاً هذه المرة، ويتضمن القتل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ٥٤) سواء فسرنا ذلك بالانتحار، أو بأن يقتل كلُّ منهم الآخر، كما جاء في بعض الأحاديث.

ولكن لماذا هذه الصورة العنيفة للتوبة؟

لربما يكون السبب أن الموقف يمثل أول تمرّد لهم على النبوة في بداية تحرّكهم العملي نحو تأسيس مجتمعهم الخاص، تنظيمياً وتشريعياً، فكان لا بُدَّ من موقف يساوي حجم التمرد، ليكون ضربةً قويةً للطبيعة المتمردة التي بدأت تحكم مسيرة الرسالة الجديدة في مجتمعها، وليمنع حدوث أيّ تحرّكٍ أو تصرّفٍ من هذا القبيل.

وتبقى هذه الصورة من التوبة محدودة المدى، فهي لم تستمر لتقضي عليهم جميعاً، بل ولعلها لم تتكرر.

• التوبة في التشريع الإسلامي:

وجاء الاسلام فرسخ مفهوم وفعل التوبة واعتبره أمراً لازماً على

المسلم حين ارتكابه المعصية، ولكنه اعتبر أن الإصلاح شرط في تحقق التوبة: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النحل: ١١٩).

• حركة التوابين:

ومن هنا برزت حركة التوابين بعد استشهاد الإمام الحسين «عليه السلام» وأنصاره وخذلان أهل الكوفة لهم.. لا بصورة ندم وذكر استغفار فقط، بل من خلال الموقف العملي المتمثل في الثورة على الحكم الأموي بقيادة الصحابي سليمان بن صرد الخزاعي البالغ من العمر ٩٣ سنة. وهكذا ينبغي أن تكون التوبة بحجم المعصية.

قال أبو مخنف: (... رأوا أنه لا يغسل عارهم والائتم عنهم في قتله إلا بقتل من قتله، أو القتل فيه).

وبرواية حميد بن مسلم كما في «تاريخ الطبري» أنه شهد وحفظ كلام سليمان بن صرد في كل جمعة حيث كان يكرر على التوابين قوله بعد لومهم على عدم نصرتهم للإمام الحسين «عليه السلام»: (ألا انهضوا فقد سخط ربكم، ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى الله، والله ما أظنه راضياً دون أن تناجزوا من قتله، أو تبيروا. ألا لا تهابوا الموت، فوالله ما هابه امرؤ قط إلا ذل، كونوا كالأولي من بني إسرائيل إذ قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى

بَارِئُكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ ﴿١٠﴾، فما فعل القوم؟ جثوا على الركب والله، ومدوا الأعناق ورضوا بالقضاء حتى حين علموا أنه لا يُنجيهم من عظيم الذنب إلا الصبر على القتل. فكيف بكم لو قد دعيتم إلى مثل ما دُعي القوم إليه؟! اشحذوا السيوف، وركبوا الأسنة، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ (١١).

وأكد هذا المنطق خالد بن سعد بن نفيل وهو أحد قادة التوابين فقال: (أما أنا فوالله لو أعلم أن قتلي نفسي يُخرجني من ذنبي ويُرضي ربي لقتلتها، ولكن هذا أمر به قوم كانوا قبلنا ونهينا عنه، فأشهد الله ومن حضر من المسلمين أن كل ما أصبحت أملكه - سوى سلاح الذي أقاتل به عدوي - صدقة على المسلمين، أقويهم به على قتال القاسطين).

وهكذا خرج قرابة أربعة آلاف مقاتل من الكوفة نحو الشام، وتلاحموا مع أضعافهم من رجالات الجيش الأموي، وأبدوا كل بطولة حتى استشهد كثير منهم في ساحة المعركة، بمن فيهم أمير التوابين سليمان. وهذه الحركة وإن لم تنجح في تحقيق نصر ميداني، إلا أنها دقت مسماراً آخر في نعش الدولة الأموية، وأنعشت في المسلمين روح مقاومة الباطل والفساد.

ومن المشاهد الرائعة في حركة التوابين أنهم: (لما انتهى سليمان بن صرد وأصحابه إلى قبر الحسين نادوا صيحة واحدة: يا رب، إنا قد خذلنا ابن بنت نبينا، فاغفر لنا ما مضى منا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم،

وارحم حسيناً وأصحابه الشهداء الصديقين، وإنا نُشهدك يا ربّ أنا على مثل ما قُتلوا عليه، فإنّ لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين. فأقاموا عنده يوماً وليلة يصلّون عليه ويبكون ويتضرعون، فما انفكّ الناس من يومهم ذلك يترحمون عليه وعلى أصحابه حتى صلوا الغداة من الغد عند قبره، وزادهم ذلك حنقاً، ثم ركبوا فأمر سليمان الناس بالمسير، فجعل الرجل لا يمضي حتى يأتي قبر الحسين، فيقوم عليه فيترحم عليه ويستغفر له. قال الراوي: فوالله لرأيتهم ازدحموا على قبره أكثر من ازدحام الناس على الحجر الأسود... ثم قال سليمان: الحمد لله الذي لو شاء أكرمنا بالشهادة مع الحسين، اللهم إذ حرمتناها معه، فلا تحرمناها فيه بعده).

• حركة تصحيحية:

إن التوبة تمثّل الحركة التصحيحية في حياة الإنسان المذنب، وبوابة العبور إلى رضوان الله، بشرط أن يكون الإنسان صادقاً في توبته، مُقبلاً على ربه، مُدركاً حجم الخطيئة التي اقترفها، تماماً كما أدرك الحر بن يزيد الرياحي حجم الخطيئة التي ارتكبها بمنعه الحسين من الوصول إلى الكوفة، فما استكان في توبته حتى نصر الحسين بالموقف العملي فأصلح ما كان قد أفسده، وكما أدرك التوّابون حجم خطيئتهم فما اكتفوا بالدعاء وطلب العفو من الله، بل أثبتوا ذلك بالموقف العملي الذي رسموا معاملة بدمائهم وتضحياتهم.

لماذا خلق الله الشر؟

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٥).

الشر قد يكون:

- ١- طبيعياً كما في الزلازل والبراكين والفيضانات والصواعق والمجاعات والأمراض والفيروسات، والإعاقات الجسدية التي يولد بها الإنسان، والحيوانات المفترسة، والزواحف السامة، وأمثال ذلك.
- ٢- أو سلوكياً من قبيل الحروب والقتل والاضطهاد والتعذيب وما إلى ذلك.

والإشكال القديم المتجدد الذي يُطرح من قبل الملحدّين واللادينّيين بهذا الخصوص يتلخص في التالي: إذا كان الله الرحمن الرحيم من جهة، والقدير على كل شيء من جهة أخرى، موجوداً، فكيف يسمح بإيجاد أو خلق أو حصول هذه الشرور؟

فبما أن الرحمة من صفاته اللازمة، فمن المفترض أن لا تسمح رحمته

بأن يتعذب طفل أو يحترق إنسان أو تتوالى المصائب على رأس الفقير المستضعف، وغير ذلك من الحالات التي يقع فيها الشر. وإذا كان على كل شيء قدير، فلم يخلق ويسمح لمسببات الشر أن توجد أو تحدث؟

إن هذا يدل - بحسب إشكالهم - على عدم وجود الرحمن الرحيم، والقدير على كل شيء.. أي عدم وجود الله! هذا الإشكال انشغل به العلماء والفلاسفة، قبل الإسلام بقرون، وألف فيه ما ألف، وما زال يحدث هزة أو ردة إيمانية عند البعض خاصة إذا عانوا في الحياة من بعض هذه الشرور. فما هو الجواب على ذلك؟

• الإجابة على الإشكال :

ما كُتب وقيل في الرد على الإشكال - قديماً وحديثاً - متعدد الأساليب والاتجاهات، وسأحاول طرح البعض منه. والإجابات التالية بعضها قد يناسب الإشكال ككل، وبعضها يمثل رداً على حالات خاصة منها:

١- إذا أردنا أن نجيب مَنْ يؤمن بوجود الآخرة، فينبغي أن نذكره أولاً أن هذه الحياة ليست خاتمة المطاف لوجود الإنسان، بل بمثابة صفحة في كتاب ضخم مكوّن مما لا يُحصى من الصفحات يمثّل حياته كلها.

فإذا مات الطفل بصورة مفاجئة مثلاً، فقد انطوت هذه الصفحة المختصرة، وتنتظره حياة سعيدة في جنة الله.



وإذا وُلد الإنسان بإعاقَة وصبر عليها، كان لهذا الصبر عطاءً يَغِبُّطُه عليه الآخرون يوم القيامة. وعلى هذا فقس سائر الشرور التي تقع وتؤلم الإنسان، ولا يؤدِّي به ذلك إلى الكفر والتمرد على الله.

٢- أنا لست لوحدي في هذه الحياة، بل هناك منظومة متكاملة من المخلوقات تتشارك في هذه الحياة وتتزاحم فيما بينها، وكلُّ منها يحتاج إلى نوع من الغذاء، ووسيلة دفاع عن النفس وما إلى ذلك.

وما أعتبره أنا شراً بالنسبة لي كسم الأفعى، هو خير بالنسبة إليها لتضمن بقاءها.. بل لو وضعت نفسي مكان هذه الأفعى لربما قلت: لماذا خلق الله

الإنسان القوي بهذا العقل الجبار؟

أي أن النظرة الأحادية الجانب التي ننظر بها إلى الأمور تدفع إلى طرح

مثل هذا الإشكال، بينما لو نظرنا إلى الصورة الكلية لتفهّمنا المسألة بشكل أوضح ولزال عنا هذا الوهم.

٣- ما اعتبره شراً ليس شراً خالصاً، بل فيه خير، وهذا الخير لربما يكون أضعافاً مضاعفة قياساً إلى الشر المتحقق. فالزلازل والبراكين مثلاً هي شرور بالنسبة إلى مَنْ عانوا منها، ولكنها بالنسبة إلى مليارات البشر، بل ولبقاء الحياة ككل على الأرض، بل واستمرار وجود الكرة الأرضية أمراً حاسماً، لأنها متنفس الكرة الأرضية.

وهذه المصاعب والشرور التي يعاني منها الإنسان تجعله أصعب عوداً، وبتعبير الإمام أمير المؤمنين علي «عليه السلام»: (أَلَا وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُوداً، وَالرَّوَاعِ الْخَضِرَةَ) المدللة بتوافر الماء والغذاء (أَرْقُ جُلُوداً، وَالنَّابِتَاتِ الْعِذِيَّةِ) المعتمدة على المطر فقط (أَقْوَى وَقُوداً، وَأَبْطَأُ خُمُوداً) ففائدتها أكبر.

بل وتدفعه إلى الإبداع والتطوير من أجل مواجهتها مستقبلاً والتغلب عليها. ولو أخذنا مفردة المرض كمثال على الشر، فإنه يدفع إلى اختراع الأدوية، ووسائل الوقاية، وتطوير الجوانب الصحية الحياتية.. إلخ.

٤- الوجود ليس شراً محضاً، بل الشر لا يمثّل في حياتنا إلا شيئاً بسيطاً منها.. ولكن الإنسان بطبيعته ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَتُوسَّسًا﴾ «الإسراء: ٨٣»، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ «المعارج: ١٩-٢٠». فلم التغافل عن أصناف الخير التي يتنعم

فيها الإنسان على مدى عقود من حياته، والتركيز على بعض الشرور التي تُعتبر حالات استثنائية في حياة الفرد؟

٥- من الشرور ما يكون نتاج كسب الإنسان نفسه، كما جاء في قوله «سبحانه»: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الأنفال: ٥٢)، فإذا تلاعب في النظام البيئي مثلاً بشكل مسرف، فإن الخلل الناتج سيصيبه بالشر.. ومثال ذلك مسألة الانبعاث الحراري وتبعاته على مستوى الكرة الأرضية.

وإذا سكت الإنسان عن الظالم وأعانه، ارتدَّ الظلم على الناس، وشمله هو ولو بعد حين ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: ٤١).

• وجود الشر ووجود التقدير الرحيم:

إن وجود الشر - بأنواعه - في الحياة لا يتنافى والإيمان بوجود الله الرحمن الرحيم الذي لا غالب له وهو على كل شيء قدير. وعلى الإنسان أن يقرأ كتاب الحياة في آفاقه المتعددة وتنوعاته الكثيرة، لا أن يستغرق - بنظرة أحادية قاصرة - في سطرٍ من كتاب الوجود وينسى كلَّ الصور الجميلة، ثم يتغافل بعد ذلك عن الحياة الآخرة وما فيها من نعيم مقيم وخير محض متى ما قدَّم لها ما تتطلبه من ثمن على مستوى الإيمان والتقوى والعمل الصالح.

نحو فقه يواكب التطورات

مع تطور وتبدل الأحوال والأوضاع التي يعيشها الإنسان تتطور القوانين... وهذا لا يعني بالضرورة تبديل القوانين، بل يشمل أيضاً استنباط قوانين تخص قضايا مستجدة لم يعهدها الناس من قبل.

• الجرائم الإلكترونية:

فعلى سبيل المثال - وقبل أقل من ثلاثة عقود من الزمن - لم تكن هناك جرائم إلكترونية يُبتلى بها عامة الناس في حياتهم اليومية كي تُسن قوانين دولية ومحلية بهذا الخصوص. ولكن مع انتشار الحاسوب والإنترنت والهواتف الجواله أصبحت المسألة ضرورة حتمية، وذلك:

- ١- لحفظ الحقوق.

- ٢- تنظيم الاستفادة من هذا التطور التقني.

- ٣- محاسبة ومعاينة الذين يسيئون استعمالها ويرتكبون من خلالها جرائم تمس الجوانب المادية والاعتبارية.

في عام ٢٠١٣ ارتكبت جرائم إلكترونية بكلفة ١٠٠ مليار دولار، وهناك أكثر من مليون ونصف ضحية يومياً حول العالم، أي ٥٥٦ مليون ضحية سنوياً لمختلف أنواع هذه الجرائم.

ومن هنا انطلقت جهود دولية وإقليمية عديدة - خاصة في السنوات الأخيرة - لسن القوانين الخاصة بهذه الجرائم وتنظيمها وتنفيذها على المستوى الدولي والمحلي.

وبالتالي فإن وجود «فقه الجرائم الإلكترونية»، بل فقه كل ما له علاقة بالشأن الإلكتروني، أصبح اليوم ضرورة حتمية.

فهل نجد له حضوراً واضحاً، سوى بعض الاستفتاءات المتفرقة هنا وهناك؟ ألا يحتاج الأمر إلى تنظيم وعرض بشكل شمولي، وبتطبيقات واضحة، مع وجود هذا الإقبال المحموم عليه؟

• فقه السلامة المرورية:

المثال الثاني «فقه السلامة المرورية»، فقد تناول الفقه الإسلامي أحكام الطريق وآدابه ضمن الوضع الذي كان قائماً في زمن صدور النص.

ومثال ذلك ما جاء في الخبر النبوي أنه «صلى الله عليه وآله» قال: (إياكم والجلوس في الطرقات. قالوا: يا رسول الله، ما لنا من مجالسنا بد، نتحدث فيها. قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه. قالوا: وما حقه؟ قال: غُضُّ البصر، وكفُّ الأذى،

وردُّ السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر). هذا النص له مصاديقه المختلفة اليوم فيما يخص استعمال الطريق وركن السيارات وما إلى ذلك، ويمثل جزءاً من فقه أحكام المرور، من قبيل القيادة برعونة وسرعة تتجاوز الحد المسموح به، وركن السيارة حيث تُعاق حركة المرور وتسبب الحوادث، والتعرض إلى النساء بالنظر عند إشارات المرور، وغير ذلك.

فالفرد يحتاج إلى الوازع الداخلي الذي يمنعه من ارتكاب مثل هذه المخالفات... والوازع الديني الشرعي مفردة إضافية إلى الوازع الأخلاقي والضمير والخوف من العقوبة ومن النتائج السلبية المترتبة.

في عام ٢٠١٤ أجرت جامعة ميشغن الأمريكية، معهد بحوث النقل، دراسة جاء فيها أن الكويت تحتل المركز الثالث عالمياً من إجمالي ١٩٣ دولة في الوفيات نتيجة حوادث ومصادمات الطرق مقارنةً بسائر أسباب الوفاة بكل بلد منها. أما الأولى فالسعودية والثانية قطر!

ألا يحتاج الأمر - بعد هذا - إلى معالجة فقهية وأخلاقية إيمانية بمستوى هذا الخطر؟

بل إن بعض الاستفتاءات تبين وجود خلل منهجي في تفكير بعض المتدينين كما في الاستفتاء التالي الموجه لسماحة المرجع السيد علي السيستاني: (س: هل يلزم المكلف الحاصل على فيزا الإلتزام بقوانين البلد غير الإسلامي، بما في ذلك التقيد بأمثال إشارات المرور وقوانين

العمل وأمثالها؟ الجواب: إذا تعهد لهم - ولو ضمناً - برعاية قوانين بلدهم، لزمه الوفاء بعهده فيما لا يكون منافياً للشريعة المقدسة. ومثل إشارات المرور يلزم التقيد بها مطلقاً، إذا كان عدم مراعاتها يؤدي - عادة - إلى تضرر من يحرم الإضرار به من محترمي النفس والمال).

فكأن المسألة المروية - عند السائل - لها علاقة بكون البلد إسلامياً أو غير إسلامي كي يتم الالتزام بقوانين المرور، في غفلة عن حجم المخاطر الناتجة عن عدم الالتزام بهذه القوانين في أي بلد كان.

وبالتالي فإن الفقه الإسلامي بحاجة إلى مواكبة هذه التطورات والمتغيرات، وأمثال النص السابق والقواعد الفقهية والأصولية كقاعدة «لا ضرر ولا ضرار» لا تجعل الفقيه في حيرة من أمره عند استنباط الأحكام الخاصة بالمرور.

بالطبع هناك دراسات ومؤلفات، بل وحتى استفتاءات في هذه المجالات، ولكن أتصور أن هذا كله لا يكفي، بل لابد من أن تتحول المسألة إلى ثقافة عند الفرد المتدين، وتحقق ذلك مرهون بأن تتضمن الرسالة العملية لمرجع التقليد فصلاً خاصة لمعالجة هذه المستجدات وترسيخ الأحكام الشرعية الخاصة بها.

فالاستفتاء من جهة يعتبر محدود التداول، ومن جهة أخرى لا يُرسخ المضمون كأمر ذي أهمية.. بينما نجد أن ما تتضمنه الرسالة العملية يكون - عادةً - أرسخ وأقوى تأثيراً وذو دلالة أقوى على الأهمية.

• التوعية ضرورة حتمية:

كما ونأمل من المؤمنين والمؤمنات الحريصين على توعية الناس بخصوص أحكام الطهارة والنجاسة، ومستحبات بداية الشهر وآداب النوم والاستيقاظ، وهذا كله حسن، أن يحرصوا أيضاً على التوعية - بل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - في القضايا المعاصرة التي تبلغ من الأهمية مستوى يؤدي فيه عدم الالتزام بالقوانين المنظمة له إلى إزهاق الأرواح، والإصابة بالإعاقات والعاهات الدائمة، وسلب الأمن من مستعملي الطريق، والإضرار بممتلكات الآخرين، والتعدي على الحقوق، والتجسس، والسرقة، وغير ذلك من القضايا التي نأمل أن نجدها حاضرة في الرسائل العملية لفقهاءنا الكرام بما يواكب مستجدات الحياة ومتغيراتها.

• إدانة للتفجير الإرهابي:

ختاماً لابد من كلمة بخصوص التفجير الإرهابي الذي طال الأمنين - ليل أمس - في الضاحية الجنوبية لبيروت، ففي الوقت الذين نظم أصواتنا إلى أصوات المستنكرين لهذه الجريمة الآثمة، نسأل الله «تعالى» أن يعيد الأمن إلى أوطاننا، وأن يجعل كيد الإرهابيين ومن يقف وراءهم في نحورهم، ويجعل تدبيرهم تدميرهم، وأن يمن على الشهداء من رحمته رحمت، وعلى الجرحى بالشفاء العاجل، وعلى ذوي الجميع بالصبر.

حق الإنسان في الحياة

قال «تعالى» في كتابه الكريم بعد استعراض قصة ابني آدم هابيل وقابيل: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ (المائدة: ٣٢).

• أصالة حرمة الإنسان:

تؤكد هذه الآية المباركة على أصالة حرمة الإنسان، ووجوب احترام حق الآخرين في الحياة، احتراماً للحياة في ذاتها، إذ تمثل سرّاً ربانياً مختصاً بخالقها، وواهبها، ومالك أمرها.

ولأن الاعتداء على حياة أي فرد من الأفراد، يمثل اعتداءً على النوع الإنساني كما قال «سبحانه»: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾.. وبالتالي فهو اعتداء على غرض الخلق، أي الاستخلاف. ومن هنا قال هابيل: ﴿مَا أَنَا

بِبَاسِطِ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾. «المائدة: ٢٨». أي أن مثل هذا القتل يمثل منازعة لربوبية الله.

• استثناءات:

نعم، استثنت الآية الموارد التي أباح الله فيها قتل القاتل قصاصاً، أو المفسد في الأرض من أجل تخليص الناس من فساد.

وهذا كله إنما يجب أن يكون ضمن ضوابط عديدة، وفي محاكمات عادلة، وبعيداً عن أية شبهة تُدرأ بها الحدود، مع ضرورة تعريف الفساد في الأرض وتحديدده بشكل دقيق من قبل الفقهاء وأهل الاختصاص.

• إقامة الحجة على الناس:

وتختتم الآية بالتأكيد على قيام الرسل بإيصال رسالات الله وبيانها وتوضيحها عبر التاريخ وفي الأمم المختلفة... هذا علاوة على توافر الرادع الذاتي بالعقل والفترة والوجدان الإنساني.

وبالتالي فهل يملك أحد أن يقول لم أعلم بحرمة التعدي على حياة الآخرين. أي أن ما يصدر من قتل غير مشروع إنما هو تجاوز لتلك الحدود، وعدم التزام بما أمرهم الله به أو نهاهم عنه.

وهل مجرد الاختلاف في الدين أو المذهب يُعدُّ مبرراً للقتل؟

لو كان الأمر كذلك لأباد الله كثيراً من الناس، وما أبقى على الأرض إلا المؤمنين المتقين الصالحين، ولكنها إرادته تعالى وحكمته

التي شاءت أن يعيش الجميع عليها، حتى إذا ورثها ومن عليها كان هو الحكم الفصل.

• تفجيرات باريس:

في الأسبوع الماضي واجهت فرنسا - بل كل العالم - الحقيقة المرة من جديد:

الحقيقة المرة في أن الإجرام الإرهابي لا يقف عند حدود دولة أو إقليم أو قارة ما.

الحقيقة المرة التي أكدنا عليها مراراً بأن الكلب المسعور إذا أطلق، فإنه لا يميز بين صديق وعدو، وينطبق عليه المثل: (سمن كلبك يأكلك).

الحقيقة المرة بأن تكرار الخطأ التاريخي بالسماح بتصدير الإرهابيين المتنامين في الغرب، والمستفيدين من أجواء الحرية هناك، إلى مناطقنا، لن يجعل الغرب بآمن من سعارهم المتوحش.

الحقيقة المرة بأن الدماء التي سالت في فرنسا ليست أعلى ثمناً من الدماء التي تسيل يومياً في سوريا والعراق ولبنان واليمن وليبيا وأفغانستان وباكستان وفي غيرها من بلاد العرب والمسلمين، فالروح الإنسانية هي روح ذات حرمة أينما كانت، ومهما كان العرق أو الدين.

الحقيقة المرة بأن هؤلاء المتطرفين وإن ادّعوا أنهم يمثلون الإسلام، وأنهم يريدون إقامة دولة الخلافة الإسلامية العادلة، إلا أنهم في واقعهم يمثلون



البيئة الخصبة للمخابرات الدولية، والتي من خلالها يُحققون أجنداتها، ومصالح حكوماتها.

• أيادي مخابراتية:

في الثلث الأخير من القرن الماضي تناست بعض المنظمات الفلسطينية عدوها الصهيوني، وتحوّلت إلى أدوات مخابراتية وإجرامية بيد مخابرات بعض الدول الإقليمية، كالنظام الصدامي، تنفيذاً لأجندات تلك الدول. واليوم نشهد حالة مشابهة من حيث الصورة لا من حيث المضمون.. فالتكفيريون بخلاياهم وتنظيماتهم الانشطارية المختلفة التشكيل والعناوين غدوا - وبامتياز - أدوات وأيادي للمخابرات الإقليمية والعالمية، مع العلم بأن بعضها - في الأصل - صنيع مخابراتية بحثة، وبعضها الآخر تنظيمات مختَرقة.

• المتضرر الأكبر:

وهم بعد هذا ينفذون جرائمهم بنداء «الله أكبر» و باسم الانتقام «للمسلمين» في سوريا والعراق وغيرهما، بينما هم في الواقع ينفذون ما يُملَى عليهم من قبل تلك الأجهزة المخبراتية بما يخدم مصالحها. تارة تقوم بعض خلاياهم المخترقة بتفجير طائرة لصالح دولة معينة، وتارة يفجرون أنفسهم في وسط الأبرياء لتخريب عملية سياسية في بلد ما، وثالثة يتحوّلون إلى أداة للانتقام من خلال خلايا أخرى خاضعة لتوجيهات مخبرات الدولة المنتقمة! والضحية الكبرى دائماً: «الإسلام».

• إدانة ولكن ... :

إننا في الوقت الذي نضم فيه أصواتنا إلى أصوات المستنكرين لهذه الجرائم البشعة، ندعو إلى أن تعيد الجهات المختلفة رسم سياساتها في التعامل مع هذا الإرهاب المتنامي بهدف القضاء عليه، لا بالسماح له بالبقاء وتكوين دويلة الإجرام كأداة لابتزاز هذا الطرف أو ذلك، أو لاستخدامه كيد خبيثة تُفسد هنا وتُجرم هناك. فقد أثبتت التجارب - وما زالت تثبت - أن الإرهابيين لا يُقيمون وزناً لدين ولا لقيم إنسانية، ولا يعرفون صديقاً، ولا يعبؤون بصاحب نعمة عليهم.

عندما يفتي الجاهل

قال الله «تعالى» في كتابه الكريم: ﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ «المائدة: ٣٢».

تحدثت في الأسبوع الماضي عن جانب من مدلول الآية الشريفة، وقلت في البين أنه لا يحق لأحد سلب حياة الآخرين إلا قصاصاً أو عقاباً لمفسد في الأرض، وأن هذا ليس فعلاً عبثياً، بل يجب أن يتم ضمن قوانين وضوابط محددة، كما لا يحق لكل أحد أن يمارسه.

• لمن التشخيص والحكم؟

وقد أثار هذا تساؤلاً: ومن الذي يحدد مفهوم الإفساد في الأرض على المستوى النظري؟ ومن الذي يحدد مَنْ هو المفسد في الأرض فعلاً وتطبيقاً؟ ومن الذي يملك حق إصدار هذه الأحكام وتنفيذها؟

النصوص الإسلامية حذرت من الاستهانة بهذا الأمر وتجميعه، ومن ذلك قوله «تعالى»: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (المائدة: ٤٥).

وعن النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله»: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور العلماء، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا).

وقد حذر علماء المسلمين - سنة وشيعة - من الإفتاء وإصدار الأحكام بغير علم، لأنه تقول على الله.

قال ابن القيم: (حرم الله «سبحانه» القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرمات، بل جعله في المرتبة العليا منها. فقال «تعالى»: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٣).

وفي الجزء الثاني والثلاثين من الموسوعة الفقهية الصادرة عن وزارة الأوقاف الكويتية تحت عنوان «ما يشترط في المفتي» الشروط التالية: «الإسلام، العقل، البلوغ، العدالة، الاجتهاد» وتحت الشرط الخامس جاء: (قال الشافعي فيما رواه عنه الخطيب: لا يحل لأحد أن يفتي في دين الله، إلا رجلاً عارفاً بكتاب الله بناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه، وتأويله

وتنزيله، ومكيّه ومدنيّه، وما أريد به، ويكون بعد ذلك بصيراً بحديث رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ويعرف من الحديث مثل ما عرف من القرآن، ويكون بصيراً باللغة، بصيراً بالشعر، وما يحتاج إليه للسنة والقرآن، ويستعمل هذا مع الإنصاف، ويكون مشرفاً على اختلاف أهل الأمصار، وتكون له قريحة بعد هذا) أي بصيرة ووعي وذوق فقهي ولغوي. وأضافت الموسوعة: (ونقل ابن القيم قريباً من هذا عن الإمام أحمد).

وفي هذا الباب نصوص كثيرة، وتأكيدات مغلّظة من فقهاء المسلمين، وأكتفي بما سبق اختصاراً للوقت.

وأما ما نشاهده اليوم من استهانة وعبث بهذا الأمر من قبل التكفيريين، على المستوى النظري والتطبيقي، وبعض مشايخ الفضائيات، فلا يمثل أهل السنة بشيء، بل هو مصداق الحديث النبوي السابق.

يتعلم أحدهم وريقات من هنا وهناك، أو يدرس في كلية أو في معهد شرعي لأربع سنوات، ثم يُنصب نفسه مفتياً وحاكماً شرعياً، يحكم في الدماء والأعراض والممتلكات ومصائر الناس.. فلهم الويل من الله.

• حكم ردة الشيوعيين:

وأقدم مثلاً على كيفية تعامل الفقهاء الحقيقيين مع هذا الأمر.. فقد كتب الفقيه والمفكر الكبير السيد الشهيد محمد باقر الصدر مذكّرة حول أسس الحكومة الإسلامية كمادة تثقيفية للحركة الإسلامية في العراق،

وضمّنها العبارة التالية: (المرتد عن الإسلام سواء كان ملئاً أو فطرياً إذا تاب وأناب، فإن الدولة الإسلامية تقبل إسلامه ظاهراً وتعامله كبقية المسلمين).

وعرض هذه المذكرة على المرجع الراحل السيد الخوئي طالباً منه إبداء الرأي والملاحظات، فسجّل بعض الملاحظات من بينها «استتابة المرتد الفطري» أي المرتد الذي كان منذ بداية حياته مسلماً، فإجماع فقهاء الشيعة على عدم الاستتابة.. فناقشه الشهيد الصدر، وقدم مثال الشيوعيين في العراق، فهم بحسب العرف مصداق عملي على الردة الفطرية، فهل يُقام عليهم الحد؟ وخلص الشهيد الصدر إلى أن هذا الزمن «زمن شبهة» بالاصطلاح الفقهي حيث تكثر الشبهات وتنتشر التشكيكات ضد الإسلام بقوة، مع ضعف المسلمين عن التصدي لها على مستوى الوسائل والمعالجات فلا يمكن والحال هذه مساواة المرتد الفطري في هذا الزمن بزمن قوة الإسلام أو حضور النبي «صلى الله عليه وآله» مثلاً.. فكيف نرفض استتابه.. وفعلاً وافقه السيد الخوئي على ذلك كما هو منقول في بعض الكتب.

وبالتالي فإن مسألة الإفتاء والقضاء وإصدار الأحكام ليست مسألة سهلة ولا عبثية ولا هي في متناول أي أحد ولها من الشروط والموازن والآداب ما يجعل الذي يحمل في نفسه شيئاً من التقوى يخاف التعدي عليها.

• تجميد العمل بالحدود:

كما أن تطبيق الحدود مسألة حساسة ومرهونة بالظروف وليست مسألة تعبدية محضة ليقال بضرورة الإتيان بها على كل حال، بل لابد من ملاحظة العناوين الثانوية، وحتى التداعيات المترتبة عليها.. فهل يستطيع الجاهل وأنصاف المتعلمين إتقانها على المستوى النظري والتطبيقي؟ ولنأخذ المثالين التاليين:

١- الطوسي في «الخلاص»: (روى أصحابنا أن السارق إذا سرق عام المجاعة لا قطع، ولم يُفصلوا) ثم نقل قول الشافعي بالتفصيل بين حالتي توفر الغذاء مع غلاء السعر وعدمه، ثم استدل بحديث علي «عليه السلام»: (لا قطع في عام مجاعة. وروي ذلك عن عمر أنه قال: لا قطع في عام مجاعة، ولا قطع في عام السنة. ولم يفصلوا).

٢- السيد الخوئي: (لا تجوز إقامة الحد على أحد في أرض العدو، إذا خيف أن تأخذه الحمية ويلحق بالعدو) مستنداً في ذلك إلى المروي عن الإمام علي «عليه السلام».

لاحظ كيف أن الخوف من ارتداد فرد أو التحاقه بصف العدو يدفع إلى تجميد إقامة الحد عليه...

فماذا لو كان ذلك يؤدي إلى ردات فعل أوسع عند المسلمين نتيجة الشبهات المثارة والدعاية المضادة للإسلام وضعف الثقافة الإسلامية

عندهم؟ وماذا لو كان هذا من أسباب تشويه صورة الإسلام وضعف الإقبال عليه؟

• مسؤولية الحواضر العلمية:

لقد عرف المسلمون - على اختلاف مذاهبهم وطوال التاريخ - أن شؤون الإفتاء والقضاء وإصدار الأحكام ليست من الشؤون المتيسرة لكل أحد، وأنها تتطلب في صاحبها مستويات عالية جداً من التقوى والعدالة والإحاطة بالعلوم الشرعية ومقدماتها المختلفة، علاوة على الحكمة والشجاعة والبصيرة بأمور الزمان مع الاحتياط في الدماء والأعراض والممتلكات.

وأما ما يقوم به اليوم منظرو التكفير والإرهاب على مستوى الإفتاء والتطبيق فلا صلة له بالاجتهاد والفقہ الإسلامي وإقامة الحدود الشرعية والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل هي منطلقة من الجهل واتباع الهوى وطاعة الشيطان، ومن العقد النفسية التي تنعكس من خلال وحشيتهم التي يقل لها نظير في التاريخ البشري.

ومسؤولية الحواضر العلمية - لاسيما عند إخواننا من أهل السنة - بذل المزيد من الجهد لترسيخ المفاهيم الصحيحة ذات العلاقة بشؤون الإفتاء والقضاء وتطبيقاتهما بما يفوت على الأدعياء فرصة خداع عامة الناس وتشويه صورة الإسلام.

طلاق أبناء الطلاق

قال «تعالى»: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٣٣)

تشير الآية السابقة إلى سوء تصرف بعض الأزواج حين الخصومة بينهما بجعل الأبناء وسيلة من وسائل الانتقام من بعضهما البعض، كما جرت العادة وما زالت، دون مراعاة لمصالح الأبناء ومشاعرهم.

ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد، فحتى مع عدم اللجوء إلى استخدام الأبناء في عملية الانتقام هذه، تبقى التأثيرات السلبية للطلاق والخصومة حاضرة بالنسبة إلى الأبناء.

هذه التأثيرات قد تكون قريبة الظهور، وقد تكون بعيدة مستقبلية. ومن بين الآثار المستقبلية ما عكسته بعض الدراسات الميدانية التي خلصت

إلى أن: أطفال الآباء المطلقين أكثر عرضة لخوض تجربة الطلاق عندما يتزوجون في المستقبل، إذ يزيد الاحتمال إلى الضعف مقارنة بأمثالهم ممن لم يعانون من طلاق الأبوين.

وقد يبدو الأمر غريباً للوهلة الأولى، إذ يُفترض بمن يعيش تجربة مريرة أن يتجنب مسبباتها أو خوضها على المستوى الشخصي في المستقبل.. فما الذي يدفع أبناء الطلاق لتكرار التجربة السلبية لأبائهم؟

• مسؤولية الحواضر العلمية:

يُرجع ذوو الاختصاص هذه المفارقة إلى عدة عوامل:

١- القلق: فمع التغير السلبي المفاجئ في العلاقة بين الزوجين، ومعاينة الأبناء لذلك، فإن القلق من المستقبل الغامض سيكون مسيطراً، وسيفقد الأبناء الإحساس بالأمن الذي كانوا ينعمون فيه من قبل، ولو بشكل نسبي، خاصة إذا لاحظنا انعدام أو قلة التجربة عند الأطفال في القضايا الاجتماعية من هذا القبيل، ولا سيما بلحاظ بعض الإحصاءات التي تشير إلى أن ٦٠٪ من حالات الطلاق تقع عندما يكون الأطفال قسراً.

والإحساس بالأمن قضية محورية في التكوين النفسي والاجتماعي للطفل، ولذا كثيراً ما يتم التشديد على أن يتولى الأبوان القيام بإطعام الطفل في طفولته المبكرة ونظافته وكسوته، وعدم إيكال ذلك إلى الخادمة.. لأن مفهوم الأمن بالنسبة إليه يتلخص في هذه الأمور، ومع إيكالها إلى



الخدمة، فإن الطفل سيعتبر أنها هي مصدر الأمان، وسيكون متعلقاً بها كثيراً، كما أن فقدانها سيترك أثره النفسي الواضح عليه. في دراسة على ٤٨ طفلاً في مرحلة رياض الأطفال انفصل والداهم بالطلاق، و٤٨ طفلاً يعيشون مع والديهم، تبين ارتفاع معدلات سوء التوافق النفسي والاجتماعي لدى الفئة الأولى بدليل: «التصرفات العدوانية - عدم الاستقرار في الفصل - مص الأصابع - صعوبات في النطق - ضعف الحصيلة اللغوية».

٢- التشاؤم: فقد يسبب الطلاق بلورة شعور متشائم تجاه العلاقات كالزواج أو حتى الصداقة. ولكن ربما يمكن التخفيف من ذلك بشكل كبير في ما لو نجح الأبوان في تحقيق ما تحدثنا عنه ذات مرة بعنوان الطلاق الناجح.

ومن أمثلة ذلك: السماح بتبادل الحضانة والرعاية والرؤية بشكل سلس ومرن بين الأبوين بعيداً عن حالة المحاصصة للطرف الآخر، وعدم إثارة كل طرف لأبنائه ضد الطرف الآخر بذكر السلبيات والكلمات المهينة. وهذا من شأنه أن يساعد الأبناء على تعلم أنه ليس من الضرورة أن تؤدي الخلافات إلى انهيار كامل في العلاقات الاجتماعية، كالزواج والصدقة. ومن نتائج التشاؤم فقدان الثقة بالشريك، فعندما يكون الطلاق نتيجة وجود علاقة بين الأب مثلاً وبين امرأة أخرى - محللة كانت تلك العلاقة أم محرمة - فإن هذا التصرف يوصل رسالة سلبية إلى الأبناء مفادها عدم إمكانية الثقة بالشريك ضمن أية علاقة اجتماعية، إذ أن الأطفال ينظرون إلى آبائهم - عادة - نظرة إكبار وإجلال واقتداء، وأنهم أهم الناس بالنسبة إليهم، وأنهم أفضل من سائر الناس.

ولا شك في أن الحالة السابقة يمكنها تدمير تلك الصورة ذات الهالة الكبيرة.. لذا فمن المهم جداً الحفاظ على المناقشات الدائرة حول تلك المشكلة بعيداً عن الأبناء.

٣- الانطوائية والخجل المفرط: ففي الوقت الذي يكون فيه بعض أطفال الطلاق عدوانيين، فإن البعض الآخر منهم يلجأ إلى الانطواء، ويتملكهم الخجل المفرط هروباً من نظرة الأقران إليهم، ومن الكلمات المسيئة الصادرة من المجتمع المحيط بهم، دون امتلاك القدرة على الرد أو الدفاع عن النفس.

هذه الانطوائية وحالة الخجل المفرط، تُعرضهم إلى فشل التجربة الزوجية في المستقبل، لاسيما تحت ضغط متطلبات الحياة الزوجية ومسؤولياتها وتحدياتها المختلفة.

٤- ضعف الأداء: فقد كشفت بعض الدراسات أن الأطفال الذين عايشوا حالات الطلاق، هم أكثر ميلاً من أقرانهم لإظهار أداء متعطل وضعيف في أنشطتهم اليومية «بما في ذلك دراستهم».

وهذا الأداء الضعيف قد يستمر معهم إلى حين الارتباط بشريك الحياة، ليظهر ذلك العيب جلياً وسط الظروف المتغيرة والمتقلّبة.

• مسؤولية الكبار:

ومن هنا كان من الضروري عند حسم الزوجين علاقتهما باتجاه الطلاق - بل وحتى الانفصال المؤقت - التفكير في كيفية التعامل مع هذا المستجد بما يخفف من الآثار السلبية على الأبناء.

فبعض هذه الآثار لا بد وأن تجد لها طريقاً إلى نفوس الأبناء وعقولهم وسلوكياتهم، إلا أن بإمكان الآباء أن يقلّصوها أو يخففوا من حدّتها، وهو ما يستدعي منهم التفكير ملياً، وضبط النفس، وتحكيم العقل، واستحضار تقوى الله «سبحانه وتعالى».. فالأبناء ضحايا أخطاء الكبار، وعلى الكبار تحمّل مسؤولياتهم تجاه تلك الأخطاء التي قد تبقى آثارها السلبية مستمرة لسنوات، بل ويرثها جيل عن الجيل الذي سبقه.

عبادة الشخصيات

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ «آل عمران: ١٤٤».

نزلت هذه الآية الشريفة في السنة الثالثة للهجرة في أجواء غزوة أحد، أي في بدايات المنعطف الجديد في الصراع بين الإيمان والشرك، ولعل ذلك في إطار ما أشيع من قتل النبي «صلى الله عليه وآله» في ساحة المعركة على ما أخبرت عنه بعض الروايات.

وأثرت تلك الإشاعة بالمستوى الذي وقع معه الارتباك على المستوى الإيماني والنفسي والعسكري في صفوف المقاتلين المسلمين حتى قيل: (ليتنا نجد مَنْ يأخذ لنا الأمان من أبي سفيان)، وقيل: (لو كان محمد نبياً لم يُقتل، الحقوا بدينكم الأول). ومن هنا كان القرآن حاسماً، إذ جاءت الآية لتقرر أن القيادة مهما كانت عظيمة، كقيادة رسول الله، فإن غيابها لا يوقف المسيرة، ولا يلغي المشروع.

• تخليد القادة بخلود الرسالة:

فالمبادئ والرسالة هي الأصل.. والقادة يُخلَّدون ويُعظَّمون بمقدار إخلاصهم وتضحياتهم لأجل هذه الرسالة والمبادئ.. ومن خلال ذكراهم، لا من خلال حضورهم الجسدي.. لأن الله لم يكتب لأحد الخلود في هذه الحياة.

هذه الحقيقة الإيمانية أدركها بعض أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وآله» في تلك اللحظات، حيث يُروى أن أنس بن النضر مرَّ ببعض الهاربين من ساحة المعركة، فسألهم مستنكراً: (ما يجلسكم؟ قالوا: قد قُتل محمد رسول الله. قال: وما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله. واستقبل القوم فقاتل حتى قُتل).

ثم إنَّ فهمنا لهذه الحقيقة الإيمانية يُلغي فكرة عبادة الشخصيات المنطلقة من الفكرة السابقة، حتى إذا غاب غابت الرسالة معه.. وإذا انحرف، انحرف الناس معه، وسطّروا لانحرافه وانحرفهم معه قوائم من التبريرات.

• اعرف الحق تعرف أهله:

وهذا ما لخّصه أمير المؤمنين علي «عليه السلام» بعبارة أخرى حيث روي أن الحارث بن حَوط أتاه فقال: (أتراني أظن أن أصحاب الجمل كانوا على ضلالة؟ فَقَالَ «عليه السلام»: يا حارث، إنَّك نظرت تحتك، ولم تنظر فوقك فحرت، إنَّك لم تعرف الحق فتعرف من أتاه، ولم تعرف الباطل فتعرف

من أتاه). وفي نص آخر: (إنَّ الحقَّ والباطل لا يُعرفان بالناس، ولكن اعرِف الحقَّ باتِّباع من اتبعه، والباطل باجتِناب من اجتنبه).

علماً بأنَّ جزءاً من مشكلة التناقض الذي نعيشه بين العناوين الرائعة التي نحملها كالإيمان والولاية، والقادة المثاليين الذين ننتسب إلى نهجهم من جهة، وبين حقيقة شخصياتنا وسلوكنا غير المتناغم مع تلك العناوين من جهة أخرى، يكمن في هذا التركيز على الشخصيات في ذاتياتهم، وإهمال الرسالة في مبادئها وقيمها.

• القائد الضرورة:

ثم تعال اليوم إلى إحدى انعكاسات عبادة الشخصيات، المتمثلة في مفهوم الرئيس الأوحِد، والقائد الضرورة، واختصار الأوطان في القادة، وهو ما يروِّج له الإعلام في كثير من الدول العربية والإسلامية.

ويبلغ الحال إلى مستوى الاستعداد لتقديم ملايين القرابين البشرية بإشعال الحروب الأهلية وتدمير الأوطان وتهجير الناس كي يبقى هذا القائد الضرورة على سُدَّة الحكم، على الرغم من كل ما مارسه من فساد وظلم. هذا فضلاً عن إضفاء صفة «العصمة» على أفعاله وقراراته حتى لا يملك أحدُ الحقَّ في نقده أو تخطئته.

وتأتي هذه الكذبة الكبرى ليصدِّقها صاحبُها بنفسه، حين تتضخم الذات عنده إلى المستوى الذي لا يلتبس معها إلا مصالحه، ولا يصحح

إلا رأيه، فهي أشبه ما تكون بعبادة الذات من خلال عبادة الفرد لهواه: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ «الفرقان: ٤٣».

وبعضهم يجعل لحزبه حالة شبيهة، إذ يستغرق في المصلحة الحزبية حتى يتحول الحزب عنده إلى إله، لا يعمل إلا من أجله، ولا يحقق النتائج إلا بما يزيد من رصيده الشعبي، وأما المصلحة العامة فيألى جهنم.

• صور مرفوضة:

إن هذه الصور بأجمعها صور مرفوضة وفق المنطق القرآني، لأن الله لا يريد لنا أن نستغرق في ذاتيات القيادة - وإن كانت بمستوى النبي الأكرم - ونحدّق في مكان عظمته، ثم ننسى القضية ذاتها، ونغفل عن الأهداف التي من أجلها قدّمت تلك الشخصيات ما قدّمته من تضحيات جسام حتى ارتفعت مقاماتها عند الله وعند الناس، لأن هذا قد يعرضنا إلى ازدواجية الشخصية والابتعاد عن الرسالة والمبادئ... ويأتي بالتبع رفض فكرة عبادة الشخصية التي خلّقت لنا طواغيت لا يرون إلا مصالحهم، وأحزاب تغوّلت حتى غدت عند المتحرّزين لها آلهة لا يرون لهم مشروعاً إلا غلبتها على سائر الأحزاب، ليحوّلوا الشعوب إلى ضحايا وقرابين، والأوطان إلى محارق وخرائب متى وجد أولئك الطواغيت أو وجدت تلك الأحزاب أنها مهدّدة بخسائر على مستوى الصراع السياسي أو المواقع المتقدمة في السلطة، وفق منطق (عليّ وعلى أعدائي).

مخاذير الاكتفاء بالتعظيم

أشرتُ في الموضوع السابق إلى أن الاستغراق في مكان من الرفعة عند العظماء مع نسيان رسالتهم، قد يعرضنا إلى ازدواجية الشخصية، والابتعاد عن منهجهم، ويبدو أن هذا الكلام احتاج إلى شيء من التوضيح.

لا يخفى على مؤمن أن تعظيم النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» في حد ذاته أمر مطلوب، وقد قال «تعالى»: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ «الأعراف: ١٥٧».

كلمة «عزّر - عزّر» - كما قال ابن منظور في لسان العرب - من الأضداد، فتارة تأتي بمعنى «أدب و لام»، ولذا يقال لنوع من العقوبة «التعزير».. وتارة تأتي هذه الكلمة بمعنى «فخم وعظم ونصر»، وهذا هو المراد في الآية. ولكننا أحياناً نتعامل مع العظماء - كرسول الله والإمام الصادق - بأن نرفع

من شأنهم ونمجد فعالهم ونتغنى بإنجازاتهم حباً لهم، وانبهاراً بهم، وتعظيماً لتاريخهم المشرق، ثم نتوقف عند هذا الحد. وأحياناً أخرى نتفاعل معهم، ولكننا لا نكتفي بذلك، بل نهتدي بهداهم، ونقتدي بسنتهم، ونبحث عن مكامن عظمتهم سعيّاً للأخذ بها.

• سلبيات محتملة:

فمن خلال الاكتفاء بالتعظيم والتبجيل والثناء والاستغراق في ذلك ستترتب عدة سلبيات محتملة:

١- نقض غرض مشروعههم الرسالي: فقد بعث الله «تعالى» نبيّه محمد بن عبد الله «صلى الله عليه وآله» لهداية الناس كي يُفلحوا، وضحّى أئمة الهدى «عليهم السلام» ما ضحّوا من أجل تلك الرسالة. فلو استغرقنا في ذواتهم، ونسينا الرسالة وتخليينا عنها، فإن ذلك يعني تخليينا عن مساندتهم في مشروعهم الرسالي، فكيف نسمح لأنفسنا حينئذ أن نتسبب إليهم؟ ولذا فإن الآية السابقة عند بيان من هم المفلحون لم تكتف بالأمر بالإيمان برسول الله «صلى الله عليه وآله» وتعظيم شأنه، بل طالبت المؤمنين به بنصرته واتباعه واتباع القرآن.

٢- المغالاة في أشخاصهم: كما حصل للنصارى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ «النساء: ١٧١».

فالتركيز على ذاتيات السيد المسيح في معاجزه وأخلاقه وروحانيته أفقدتهم البوصلة، حيث استغرقوا فيها تعظيماً وتبجيلاً حتى تجاوزوا به حد البشرية والعبودية.

وهذا ما سعى القرآن لتأكيدهِ وتجنيب المسلمين تكرار ذات الخطأ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ «الكهف: ١١٠».

كما واجهه الأئمة «عليهم السلام» بقوة، من قبيل ما جاء في خبر مصادف قال: (لما لبى القوم الذين لبوا بالكوفة) أي قالوا: لبيك يا جعفر بعد أن ادّعوا له صفات الألوهية (دخلت على الصادق «عليه السلام» فأخبرته بذلك، فخرّ ساجداً وألّزق جوجؤه بالأرض، وبكى وأقبل يلوذ بإصبعه ويقول: بل عبدُ الله، قنّ داخر) عبد ذليل (- مراراً كثيرة - ثم رفع رأسه ودموعه تسيل على لحيته، فندمت على إخباري إياه فقلت: جعلت فداك، وما عليك أنت من ذا؟ فقال: يا مصادف، إن عيسى لو سكتَ عما قالت النصاري فيه، لكان حقاً على الله أن يصمّ سمعه ويعمي بصره. ولو سكتَ عما قال أبو الخطاب، لكان حقاً على الله أن يصمّ سمعي ويعمي بصري).

وقيل للصادق «عليه السلام»: (جعلنا فداك، إن المفضل بن عمر يقول إنكم تقدرون أرزاق العباد. فقال: والله ما يقدر أرزاقنا إلا الله، ولقد احتجتُ إلى طعام لعيالي فضاق صدري، وأبلغتُ إلى الفكرة في ذلك) غمّني الأمر (حتى أحرزت قوتهم، فعندها طابت نفسي).

وهؤلاء المغالون كلما نفى الإمام أقوالهم، لجؤوا إلى تأويل كلماته لإثبات باطلهم. فعن قاسم الصيرفي، قال: (سمعت أبا عبد الله «عليه السلام» يقول: قوم يزعمون أنني لهم إمام، والله ما أنا لهم بإمام، ما لهم لعنهم الله، كلما سترت سترًا هتكوه، هتك الله ستورهم. أقول: كذا، يقولون: إنما يعني كذا. أنا إمامٌ مَنْ أطاعني).

٣- الإساءة إلى العنوان الذي ننتمي إليه وتشويه صورة العظماء الذي نتنسب إليهم: ونلاحظ هذا جلياً في وصية الإمام الصادق «عليه السلام»: التي رواها زيد الشحام وأولها: (اقرأ على من ترى أنه يطيعني منهم ويأخذ بقولي السلام) قال: (... فإن الرجل منكم إذا ورع في دينه، وصدق الحديث، وأدى الأمانة، وحسن خلقه مع الناس، قيل: هذا جعفري، فيسرّني ذلك، ويدخل عليّ منه السرور، وقيل: هذا أدب جعفر. وإذا كان على غير ذلك، دخل عليّ بلاؤه وعاره، وقيل: هذا أدب جعفر).

وهذا يحدث الآن، وانظر إلى ما يقال عن عدم عناية الشيعة بصلاة الجمعة والجماعة، وعن إحيائهم لطقوس وثنية من قبيل المشي على الجمر والتطيين والتخييس تحت عنوان الشعائر الحسينية، وعن علاقتهم بنكاح المتعة بشكل مهووس وبلا ضوابط شرعية، وأمثال ذلك.

وهذا نمودج بين أيدينا: (كتب أبو الحسن «عليه السلام» إلى بعض مواليه: لا تلحوا على المتعة، إنما عليكم إقامة السنة، فلا تشتغلوا بها عن فرسكم

وحرائركم، فيكفرن، ويتبرّين، ويدعين على الأمر بذلك، ويلعنونا). فكم نلتزم نحن بذلك؟ وهل نحن نُسِر الإمام الصادق بهذا أم ندخل البلاء والعار عليه والعياذ بالله؟

٤- ازدواجية الشخصية: للتناقض بين العنوان الذي ننتمي إليه والشخصيات التي نعظمها من جهة، وبين سلوكياتنا وأخلاقنا من جهة أخرى. ومن أمثلة ذلك ما ورد في الخبر التالي عن محمد بن عجلان قال: (كنت مع أبي عبدالله «عليه السلام» فدخل رجل فسلم، فسأله: كيف مَن خلّفت من إخوانك؟ فأحسنَ الشاء وزكّى وأطرى. فقال له: كيف عيادةُ أغنيائهم لفقرائهم؟ قال قليلة. قال: كيف مواصلةُ أغنيائهم لفقرائهم في ذات أيديهم؟ فقال: إنك تذكر أخلاقاً ما هي فيمن عندنا. قال: فكيف يزعم هؤلاء أنهم لنا شيعة؟).

ولذا أعود لأؤكد أن من الخطأ أن نكتفي فقط بالاستغراق في ذاتيات العظماء كالنبي «صلى الله عليه وآله» والأئمة «عليهم السلام» والتحديق في مكامن عظمتهم، مع نسيان رسالتهم، ومن دون الاهتداء بهديهم، وإغفال الأهداف التي من أجلها قدّموا ما قدّموه من تضحيات جسام، لأن في هذا نقضاً لمشروعهم، ومظنة الوقوع في مهلكة الغلو، وتقدير الفرصة لأعدائهم للإساءة إلى أشخاصهم ورسالتهم، مع تعريض النفس لخطر الابتعاد عن الرسالة والمبادئ والقيم التي أخذوا بها وضحوها من أجلها.

الانتران النفسي في شخصية النبي

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ «آل عمران: ١٥٩».

جاءت هذه الآية الشريفة في أجواء معركة أحد والأوضاع الخاصة التي عاشها المسلمون مع اقتراب جيش كبير للمشركين، على خلاف غزوة بدر الكبرى حيث كان اللقاء على بعد عشرات الكيلومترات من المدينة. وعلى الرغم من إبداء النبي «صلى الله عليه وآله» الميل للمواجهة من خلال التحصن في المدينة نفسها، إلا أن كثيراً من المسلمين، بما فيهم الشخصيات البارزة من أصحاب النبي «صلى الله عليه وآله»، ولاسيما الذين لم يشاركوا في غزوة بدر، بالإضافة إلى الشباب المتحمسين، أصرّوا على الخروج للقاء العدو في أرض مكشوفة على مشارف المدينة.

وانطلقت في تلك الأجواء الكلمات الحماسية منهم والضاغطة باتجاه

الخروج، فما كان منه «صلى الله عليه وآله» إلا أن استجاب لرغبتهم الحماسية، وأعلن البدء بالتهيؤ للخروج.. بالطبع ندم جمع منهم بعد ذلك، وتلاوموا فيما بينهم، واعتذروا للنبي، وأبدوا استعدادهم لتنفيذ خطته، إلا أنه لم يتراجع عن القرار ومضى فيه.

وهكذا استوعب النبي «صلى الله عليه وآله» الموقف - وبكل رحابة صدر - وأمضى رغبتهم، وهو القائد الأعلى، والمسدد من الغيب، واكتفى بقول: (قد دعوتكم إلى هذا الحديث فآبئتم، ولا ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه).

لم يفعل رسول الله «صلى الله عليه وآله» غاضباً لرفضهم قوله في البداية، ومن غير أن يحقر رأيهم مقابل رأيه، أو يستسخر عقولهم أمام حكمته وارتباطه بالغيب.

وهكذا عبرت الآية الشريفة عن حكمة النبي، وأخلاقه الرفيعة، وشخصيته المتوازنة، وقلبه الكبير. وهو أيضاً ما عبر عن بعضه أكثر من شخص ممن عاشروه فقالوا عنه فيما قالوا: (لم يكن فحاشاً ولا متفحشاً ولا صخاباً).. أي لم يكن يتكلم بما هو قبيح من القول، ولا يأتي بما هو قبيح من الأفعال، وكان هادئاً في قوله، ليس بالصياح.

• على خطى جده:

وعلى هديه كان إمامنا جعفر الصادق «عليه السلام»، وقد قال إمام المالكية

مالك بن أنس: (ما رأيت عيني أفضل من جعفر بن محمد فضلاً وعلماً وورعاً.... لم يكن عيباً ولا سبباً ولا صخباً... ولا طعناً ولا لعناً ولا هماً ولا لماً....).

• السيطرة على الانفعال:

لا شك أن الانفعال سلوك إنساني طبيعي.. وعلمياً يقولون أن الفص الأمامي للدماغ مسؤول عن عمليات التفكير المنظم، والتخطيط، واتخاذ القرارات عن وعي وإدراك، بينما في أسفل المخ هناك لوزة أصغر من حبة البندق، تتعامل مع التغيرات المفاجئة والأزمات والانفعالات كالغضب، والحرج، والحزن، والخوف، وغيرها.

فعندما يتعرض الإنسان لمواقف فجائية طارئة تتفاعل هذه اللوزة مع هذا الطارئ، وتحوّل جزء من طاقة الفص الأمامي إلى حواس الإنسان وأطرافه، فتبدر من الإنسان تصرفات انفعالية، ويغيب حينها دور العقل.

تقول بعض الدراسات أن كل ما تحتاجه في تلك اللحظة أن تعطي لنفسك فرصة ٦ ثوان كي تعيد للفص الأمامي دوره ليأخذ زمام الأمور بدلاً من تلك اللوزة. في الحديث النبوي: (إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع). هذا التغيير في الوضع يعطيك المهلة المطلوبة، وتستهلك من خلالها شيئاً من الطاقة التي تم ضخها ولكن في الاتجاه غير العدواني.



وما أجمل أن تلجأ في تلك اللحظات إلى الوضوء، كما في حديث نبوي، وتذكر الله «عزوجل» وتصلي ركعتين لتحول الطاقة الانفعالية العدوانية إلى عفو وتسامح ورحمة وتفكير متزن مع استمداد العون من الله.

• مع التجربة الموسوية:

كان النبي موسى بن عمران «عليه السلام» ذي شخصية سريعة الانفعال - وإن كانت دفاعاً عن الحق والمظلومين وفي مرضاة الله - إلا أن الله أراد له أن يكون أكثر سيطرة على انفعالاته فأدخله تجربة عملية مع العبد الصالح في الرحلة المعروفة.

ولعل تلك الحالة ناتجة أصلاً من أنه نشأ وتربى في البلاط الفرعوني،

فتركت تلك البيئة شيئاً من الأثر على شخصيته.. ولا يخفى علينا كيف يتصرف أصحاب القوة والنفوذ انفعالياً لاسيما مع من هم أقل منهم شأنًا.

• البيئة التربوية:

لذا نقول لأولياء الأمور الذين يحبّون أن يروا أبناءهم يتمتعون بشخصية هادئة، هل وفرتم لهم هذه البيئة؟

أولياء الأمور الذين يشتكون أن أبناءهم عنيفون في ردود أفعالهم، سريعو الغضب، صخابون، عدوانيون، فليراجعوا أنفسهم.. فعندما يحدث الخلاف - مثلاً - بين الزوجين فيلجئان إلى الصراخ.. أو عندما يرى الطفل والديه في حالة انفعال دائم.. كيف نتوقع أن تكون انفعالاته وتصرفاته؟

• مع أهل السياسة والدين والفن:

عندما نجد أن المجتمع يعاني من التصرفات الانفعالية المتزايدة، فليراجع السياسيون سلوكياتهم، حينها سيجدون أن حواراتهم البينية عنيفة، وأن سمة خطاباتهم الصراخ والصخب.. وليراجع رجال الدين خطابهم الديني، سيجدون أن الإقصاء والتكفير والعنف سمات غالبية على ذلك الخطاب، وأن أحدهم لو اختلف مع رجل الدين الآخر فإنه لا يرحمه، بل يكيل له عناوين الجهل وقلة العقل.. وليراجع أهل الفن والإعلام إنتاجهم الفني والإعلامي، سيجدون حينها أن التسفيه، والتحقير، والاستهزاء، والكلمات الجارحة، وإثارة الخلافات، هي العناوين الحاضرة فيه.

إن الواقع الانفعالي الذي يعيشه الطفل في البيت، والفرد في المجتمع، إنما هو نتاج البيئة التي نصنعها من حولنا، ومن يريد تغيير ذلك الواقع فعليه أن ينظر إلى الوالدين في البيت، وإلى السياسيين في محافلهم وإلى رجال الدين في خطبهم وكتاباتهم، وإلى أهل الفن والإعلام في إنتاجاتهم.. فإن أصلحوا ما أفسدوه، فسينصلح حال الطفل في البيت، وحال الفرد في المجتمع، وما أجمل قول النبي «صلى الله عليه وآله» وهو يشخص جانباً من المشكلة: (صنفان من أمتي إذا صلحاً صلح الناس، وإذا فسد فسد الناس: الأمراء والعلماء).

• مع السنة الجديدة:

نسأل الله «عز وجل» أن يجعل هذا العام الذي دخل علينا خيراً من السنة الماضية، فقد اصطبغت الكثير من أقطار العالم الإسلامي وخارجة بلون الدم الحرام المستباح على موائد الإرهاب باسم الدين والدولة، وعلت أصوات المدافع والصواريخ أكثر وأكثر، وفقد المزيد من الأبرياء مساكنهم وأمنهم ومصادر رزقهم، وابتلعت البحار أجساد الأطفال والأمهات والشيوخ الفارين من قسوة الحروب ووحشية العدوان، واشتدت صورة الإسلام قتامةً في عيون الناس، وازداد المسلمون بُعداً عن قضيتهم المركزية.. قضية فلسطين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

لماذا نضيع البوصلة ؟

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَآتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ «البقرة: ١٨٩».

أراد الله «عز وجل» للنبي «صلى الله عليه وآله» أن يهتم بكل الأسئلة.. لأنَّ من حقَّ الناس عليه أن يتدثروهم بالمعرفة إذا لم يسألوه، وأن يجيبهم إذا توجهوا إليه بالسؤال، لأنَّ من مهمات النبي أن يفتح لهم أبواب المعرفة على أوسع مدى.

ولربما يتجه الإنسان في سؤاله في الاتجاه الخاطيء، نتيجة اهتمامه بأمور لا تُسمن ولا تُغني من جوع، أو في قضايا تعود عليه بالضرر، أو بمسائل وهمية باطلة، ثم يضيع في تفاصيل لا تُحقق له نتيجة تُذكر.. والمسؤولية هنا أن يتم توجيه هذا السائل إلى السؤال الصحيح والاتجاه السليم ليصل إلى المعرفة المفيدة.

وقد يكون بعض ما يُطرح كسؤال أو كفكرة منطلقاً من بعض التصورات غير المنسجمة مع الإيمان، أو الشريعة، أو الموقف القيادي... ولا بُدَّ للقيادة الفكرية والسياسية من الاستجابة لذلك كله بكلّ رحابة صدر.

ولعل الآية تأتي في هذا الإطار، حيث سئل النبي «صلى الله عليه وآله» عن السر وراء التشكلات المختلفة للأهلة، فوجهتهم الآية إلى مسار آخر، وكأنها تقول لهم ابحثوا عما يحقق لكم الفائدة العملية من هذه التغيرات.. ولربما كان السبب أنهم لم يكونوا يملكون من القدرة على المعرفة الكونية بما يوصلهم إلى نتيجة مفيدة في التصور الفلكي.

• المفهوم الحقيقي للبر:

وهكذا على مستوى السلوك.. فقد كانوا يتصورون أن الشرع يحتم عليهم عدم دخول البيوت من أبوابها، بل من ظهورها ما داموا في حال الإحرام، وأن هذا من البر العملي.. فجاءت الآية لتبين لهم المفهوم الصحيح للبر، وهو أن يمتلك الإنسان التقوى، لتجعله التقوى إنساناً صالحاً في الحياة.

وقد استوحى الإمام الباقر «عليه السلام» من هذه الآية فكرة رائعة إذ قال في معنى: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾: (يعني أن يأتي الأمر من وجهه، أي الأمور كان). ابحثوا عما يعود عليكم بالنفع، وخوضوا فيما يصلح حالكم، واسلكوا الطريق الصحيحة لبلوغ الغاية... ولكن أكثر الناس يُضيعون البوصلة.



• الإقبال على الطالع:

عندما يدخل العام الجديد، أو نكون على مشارفه، تمتلئ المكتبات بكتب الأبراج والطالع، ويغيب كثيرون عن الوعي والحقيقة وهم مستغرقون في مطالعة صفحات هذه الكتب طلباً لكشف المستور واستباق المستقبل، ويغفلون عن القيام بإطلالة ولو سريعة على ما قدموه في عام مضى، وعن التخطيط لعام قادم يكون أفضل، لا بناء على تكهنات وأوهام، بل بناء على التوكل على الله، وعلى حقائق ومعطيات على الأرض. وهكذا يُضيع الناس البوصلة في تفكيرهم، وفي أسئلتهم، وفي تعاطيهم ومعالجاتهم لكثير من الأمور.

• استجابات مجلس الأمة:

تُثار في مجلس الأمة قضية فساد أو خلل في أداء مؤسسة حكومية أو



وزارة ما، وتتهيج معها الصحافة، والقنوات الفضائية، ووسائل التواصل الاجتماعي، وتقوم الدنيا ولا تقعد مع الاستجواب أو ضده. ثم يتم الاستجواب، أو يستقيل الوزير، أو يكون هناك تدوير للوزراء.. ويتوقف كل شيء عند هذا الحد، وكأن المسألة كانت تصفية حسابات شخصية مع المسؤول، أو استعراض عضلات، أو أي شيء آخر سوى أنها كانت معالجة للخلل أو محاربة الفساد! ولا أحد يحاسب أو يستجوب هذا النائب على ما فعل.. بل الكل يصفق له، ويهلل، لشطارته في إسقاط المسؤول، وينسى الجميع أصل المشكلة، وموطن الخلل، وعين الفساد. ويعود الوضع إلى ما كان عليه... وهكذا يُضيع الناس البوصلة.

• مع قضية الشيخ النمر:

قضية الشيخ النمر «رحمه الله» تحوّلت إلى إثارة مذهبية، وسباب وتصفية

حسابات، وطفحت وسائل التواصل الاجتماعي بمقاطع فيديو طائفية، وسخرية من هذا وذاك. والأنكى من ذلك أن توجه أسئلة برلمانية للوزراء المعنيين ضد مجموعة من علماء البلد أصدروا بياناً عبّروا فيه عن قناعتهم بخصوص هذا الحدث! بغض النظر عن صحة موقف العلماء أو عدمه.

هل يُراد مواجهة وإثارة الشارع الشيعي ككل؟ هل تجهلون قيمة العمامة واللباس الديني والامتداد المرجعي في الساحة الشيعية؟ هؤلاء علماء دين، ومن أبناء الوطن، ولا يُعامل معهم بهذه الصورة الاستفزازية.

• الإدارة الحكيمة للأزمات:

تعلموا من أمير البلاد كيف أدار وبصورة حكيمة تبعات التفجير الإرهابي الذي طال مسجد الإمام الصادق، ذلك التفجير الذي كان مرشحاً أن يحوّل الكويت إلى ساحة للاقتتال الطائفي، لولا التعامل الأبوي الذي وظّف الحدث لمصلحة الكويت وأبنائه، فخرجت البلاد أقوى وأكثر تلاحماً حتى صار الآخرون يغبطوننا ويضربون بنا المثل. وهذه نعمة كبيرة، فتأليف القلوب عمل جبار ليس بالسهل: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ (الأنفال: ٦٣).

فهل هناك أيادي تعمل على زوال هذه النعمة، وتوجّهنا بذلك الاتجاه الخاطئ، من خلال الإثارات الطائفية والسباب والتخوين الذي يملأ وسائل التواصل الاجتماعي؟ وإذا كان الجواب إيجابياً.. فأين عقولنا

نحن؟ لماذا نسمح بأن تُجر أقدامنا إلى مثل ذلك؟ لماذا نسمح لهؤلاء بأن يستخدمونا خطباً لنيرانهم؟

• قدّموا مصلحة الوطن على مصالحكم:

إننا أمام مرحلة دقيقة، وفي مواجهة خطر لا يُستهان به، لأن أية نزاعات سياسية تلبس الرداء الديني والمذهبي، سرعان ما تتحول إلى حرب مقدّسة، لا تُبقي ولا تذر. وما جرى في لبنان قبل عقود، وفي العراق وسوريا واليمن مؤخراً خير شاهد على ذلك. ولذا فإنّ على الجميع أن يتحملوا مسؤولياتهم. والمأمول من السياسيين بما فيهم نواب الأمة، والحزبيين: أن يقدّموا مصلحة الوطن، بدلاً من التكسب الحزبي والانتخابي واستغلال الظرف لتصفية الحسابات.. والمأمول من المسؤولين: الارتقاء إلى مستوى التعامل الحكيم مع التطورات المتصاعدة ومراعاة الظروف الموضوعية الداخلية والإقليمية بما يحوّل الأزمة إلى عنصر قوة وتلاحم وطني.. والمأمول من عامة الناس: التفكير بعقلانية، والابتعاد عن المهاترات والمزايدات والتأجيج الطائفي والاصطفاف المذهبي.

لا تتلاعبوا بالنار فتُحرق الجميع، ولا تُضيعوا الكويت في وسط الأجواء العاصفة بين دول الإقليم الكبرى، فقد تخرج تلك الدول من كل هذا بتفاهات وترضيات، ولو بعد حين، ونبقى نحن في حيرة كيف نداوي جراحاتنا العميقة، ونعيد ما خسرناه في وسط العاصفة المدمرة.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ، قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَاكِفِينَ، قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ، أَوْ يَنْفَعُونَكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ، قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ «الشعراء: ٦٩-٧٤».

من الله «عزوجل» علينا بالنبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» على خطى جده الخليل إبراهيم «عليه السلام»، فخلصنا نهائياً من عبادة الأصنام الحجرية والخشبية وغيرهما.

• أصنام من نوع آخر:

ولكن هناك أصناماً من نوع آخر نختلقها لأنفسنا نتيجة عوامل تربوية أو بيئية أو إعلامية أو غير ذلك، وسعى النبي «صلى الله عليه وآله» أن يخلصنا منها، ولكنها بقيت في أغلب الأحوال حاضرة في حياتنا.

عرّف البعض الصنمية كالتالي: (تقديس غير المقدّس واعتباره الحق المطلق، بحيث يمتلك الحصانة من النقد، ليتحوّل ذلك إلى حالة من

الاتباع التام والطاعة المطلقة). وعلينا هنا أن ننتبه إلى أن الطاعة التامة: تارة تكون لما يستحق ذلك، كما في قوله «عزوجل»: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ «الحشر: ٧».. فالطاعة التامة والاتباع الكامل لرسول الله «صلى الله عليه وآله» ليس حالة صنمية، لأنه اتباع للحق. وتارة أخرى تكون تلك الطاعة التامة والانقياد الكامل لما لا يستحق مثل ذلك.. وعندها تتحقق الصنمية.

• فراعنة معاصرون:

قال «عزوجل»: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ «الجاثية: ٢٣». هذه حالة صنمية دون أن يكون في البين صنم مصنوع من حجارة أو خشب وأمثال ذلك.. والتخلص من هكذا أصنام موكل أمره إلينا. والصنمية قد تكون لإنسان ظالم مستكبر كفرعون: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى، فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ «النازعات: ٢٣-٢٤».

من المعاصرين أحد رؤساء جمهورية تركمنستان كان مصداقاً للرئيس الصنم، صنع من نفسه صنماً لشعبه، حين اعتبر أنه مطلق السلطة، واجب الطاعة التامة، وألف كتاباً باسم «روحنامه» اعتبره كتاباً مقدساً قال فيه: (كل من يقرأ هذا الكتاب ثلاث مرات سيكتشف ثروة روحية وسيزداد ذكاء وفطنة وسيكون مصيره الجنة)!

ثم استبدل أسماء الأشهر وأيام الأسبوع، فشهر يناير أصبح يحمل

لقبه «تركمانباشي»، وشهر إبريل اسم والدته، وشهر سبتمبر اسم الكتاب المقدس الذي ألفه.. إلخ القائمة.

وهكذا قد تكون لزعامات اجتماعية: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ «الأحزاب: ٦٧».

• صنمية المفاهيم:

وبعض المفاهيم قد تتحول لتكون أصناماً، فالبعض يطرح القومية أو الوطنية بشكل يحولهما إلى أصنام، بحيث يعتبر أن كل ما يرتبط بالقومية أو بالوطنية صحيح ولو كان متعارضاً مع العدل والحق.

الوطنية مطلوبة، ولكن تخيل لو أنك كنت تحت حكم صدام ويفرض عليك المشاركة في العدوان على الدول المجاورة ونهبها وتدميرها وقتل أهلها واغتصاب نساؤها.. تحت مسمى الوطنية.. ألا تتحول الوطنية في هذه الحالة إلى صنمية؟

• صنمية الأحرار والرهبان:

بل قد تكون الصنمية لمن يتلبس باللباس الديني: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ «التوبة: ٣١».

الحالة الصنمية هنا نتجت من أن أولئك الأحرار والرهبان أعطوا لأنفسهم مكانةً وقداًسةً لا يستحقونها، وأضفوا على أنفسهم من الصفات ما لا يعكس واقعهم، ثم أمروا الناس بطاعتهم، حتى فيما غيروه من أحكام الله

وشريعته، وعبثوا فيه من إيمان الناس ومفاهيمهم. وفي الكافي عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» في تفسير الآية السابقة: (والله ما صاموا لهم، ولا صلّوا لهم، ولكن أحلّوا لهم حراماً وحرّموا عليهم حلالاً، فاتّبِعوهم).. هذه صنمية.

كل شيء ممكن أن يتحول إلى صنم.. «الماركات» بالنسبة إلى بعض النساء صنم، وعلاقاتهن بها علاقة صنمية.. «الصيد اللهوي» بالنسبة إلى بعض الرجال صنم... المنصب، السفر اللهوي، كرة القدم.. إلخ القائمة.

• المعالجة التربوية والدينية والإعلامية:

ومن أهم خطوات المعالجة هي المعالجة التربوية، بأن نبدأ في بيوتنا، في تربيتنا لأطفالنا.. فقد نخلق نحن هذه القابلية في أطفالنا بأسلوبنا التربوي الخاطئ، أو بالمفاهيم المغلوطة التي نزرعها في أذهانهم.

ويأتي دور الخطاب الديني أيضاً، حيث عليه أن يتحمل مسؤولية توعية المجتمع بمنطق النبي «صلى الله عليه وآله» القائل: (ألا لا يمنع رجلاً هيبة أحد أن يقول بحق إذا علمه)، لا بمنطق الأخبار والرهبان الذين يريدون من الناس الطاعة التامة حتى في ما يخالف دين الله «عز وجل» وشريعته.

وهناك مسؤولية على المناهج التعليمية ووسائل الإعلام أن يُبرز دور النقد البناء الهادف، ويشجّع عليه، ويساعدا في بناء الوعي، لئلا يتحوّل أفراد المجتمع إلى إمّعات ينعمون وراء كل ناعق.

كما أن من مسؤوليتهما أن لا يحوّلوا الأفراد والجماعات والأحزاب والقوميات إلى أصنام ومقدسات واجبة الطاعة والاتباع ولو في الباطل والفساد، لأن المسؤولية الدينية والوطنية والإنسانية تحتم علينا السعي لتصحيح الخطأ بحكمة، أيّاً كان مصدر الخطأ.

• صنمية الأحزاب والجماعات الإسلامية:

وإذ كان المعوّل على الحركات الإسلامية - السنيّة منها والشيعة - أن تكون رافداً من روافد الإصلاح لهذا الخلل في مجتمعاتنا، إلا أن كثيراً منها - وللأسف الشديد - لم تستطع الفكّك من الحالة الصنمية للجماعة أو القيادة، بل تحوّل بعضها - أو بعض قادتها - إلى أصنام تُطاع من دون الله، لتتحرف بذلك عن جوهر وجودها وطبيعة حركتها، حين يتبنّى أتباعها وأنصارها فكرة أن كل ما يصدر عنها هو خيرٌ محض، ويمثّل عين الحقيقة والصواب، وأن طاعتها ملزمة على كل حال، ولا يجوز الرد عليها.

بل غالى بعضهم حتى اعتبر أن عدم الانتماء لهذا الحزب أو ذاك - أو حتى مخالفته - يعني حتمية المصير البائس في الآخرة! إن مسؤولية هذه الحركات والقيادات أن تعيد تقييم تجربتها وفق المنهج القرآني الرفض لأية صنمية وإن ألبست ثياب الشرعية وزُخرفت بعناوين الضرورة ومتطلبات المرحلة.

مجلس مخاصمة القضاء

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ «النحل: ٩٠».

للعَدل والظلم حضور في كل مفاصل حياة الإنسان.. في بيته، وفي الشارع، وفي محل عمله، وفي السوق، وفي الإدارات، وفي المحاكم، وغير ذلك. ولو رجعنا إلى القرآن الكريم لوجدنا عشرات الآيات التي تتحدث عن العدل من خلال استعمال كلمة «عدل» أو «قسط» باشتقاقتهما، وبأجمعها تؤكد على هذا الأمر، وأنه الركيزة لبناء المجتمع القوي والمتماسك.

بل تحدث القرآن الكريم عن أن من أبرز مهام الأنبياء «عليهم السلام» السعي لتحقيق العدالة في المجتمعات: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ «الحديد: ٢٥».

والحديث المتفق عليه عند المسلمين حول ظهور المهدي «عليه السلام» في آخر الزمان يركز حول عنوان العدل دون أي عنوان آخر: (يملاً الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً).

• العدل فوق الاعتبارات:

واعتبر القرآن الكريم أن لا شيء يقف بين العدل والعمل به، لا العنوان الديني، ولا الاختلاف العرقي، ولا طبيعة العلاقة القائمة بين الطرفين، ولا صلة القرابة، ولا التمايز في القيمة الاجتماعية، ولا أي شيء آخر. قال «تعالى»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ «النساء: ١٣٥».

وقال «عز اسمه»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ «المائدة: ٨».

لأن الظلم لا نتيجة له سوى التدمير التدريجي لكل مقومات وأسس القوة والتماسك والنمو في المجتمع.

قال ابن خلدون في مقدمته وهو يتحدث عن نتائج الظلم بصورة العديدة: (ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو مادتها، لإذهابه الآمال من أهله.... ويتطرق هذا الخلل على التدرج ولا يُشعر به).

فالتاجر إذا خاف الظلم استثمر أمواله في الخارج، والمواطن الذي يقع عليه الظلم قد يهاجر إلى حيث يشعر بالأمن ويجد العدل، والموظف الذي يعاني من الظلم لن يكون مخلصاً في عمله، وعلى هذا فقس، وكما قال



الله «تعالى»: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا
وَبِئْسَ مَعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَّشِيدٌ﴾ (الحج: ٤٥).

• العدل في القضاء:

ومن أهم مواطن طلب العدل وأشدّها حساسية: القضاء، وبتعبير أمير المؤمنين علي «عليه السلام» فيما روي عنه: (العدل حياة الأحكام).

ومن هنا نجد أن الشريعة الإسلامية لم تكتفِ بوضع مجموعة شرائط تخص القضاء والتقاضي، من قبيل عدالة القاضي وعلمه وأمثال ذلك، بل قدّمت مجموعة من الآداب أيضاً، إمعاناً في تحقيق العدالة، ومنها:

• عن النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله»: (من ابتلي بالقضاء فلا يقضي وهو غضبان).

• وعن علي «عليه السلام»: (من ابتلي بالقضاء فليواس بينهم في الإشارة، وفي النظر، وفي المجلس).

• وفي خبر: (أن رجلاً نزل بأمر المؤمنين «عليه السلام»، فمكث عنده أياماً، ثم تقدم إليه في خصومة لم يذكرها لأمر المؤمنين «عليه السلام»، فقال له: أحصم أنت؟ قال: نعم، قال: تحول عنا، فإن رسول الله «صلى الله عليه وآله» نهى أن يُضاف الخصم، إلا ومعه خصمه). خوفاً من المحاباة نتيجة العامل النفسي في العلاقة التي قامت بين الطرفين خلال مدة الضيافة، أو اتهام الناس للقاضي بالمحاباة، أو إحساس الخصم بعدم العدالة، أو تأثير الضيف على المضيف من حيث لا يدري .. إلخ.

ولذا فقد ضمّن علي «عليه السلام» كتابه إلى واليه على مصر مالك الأشر الوصية التالية: (اختر للحكم بين الناس أفضل رعيّتك في نفسك.... ثم أكثر تعاهد قضاؤه) أي مراقبة عمل القاضي ومدى التزامه بشروط القضاء ونزاهته (وافسح له في البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته إلى الناس) كي لا يطمع في الرشى فيجور في أحكامه (وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصّتك، ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك) أي احرص على تعزيز علاقتك به، بحيث لا تدفعه الفجوة في العلاقة إلى أن يخاف على مكانته وموقعه المتقدم، فيلجأ بالتالي إلى مصانعة الأقوياء وذوي النفوذ والأثرياء أملاً في إسنادهم له عند الحاجة.

• الإمام علي ينتقد شريحاً القاضي:

وقد طَبَّقَ الإمام علي «عليه السلام» أمر مراقبة القضاة بنفسه في القضية التي نقلها الشريف الرضي في قسم الكتب من نهج البلاغة «الكتاب الثالث»، قال: (روي أن شريح بن الحارث قاضي أمير المؤمنين «عليه السلام» اشترى على عهده داراً بثمانين ديناراً، فبلغه ذلك فاستدعى شريحاً وقال له: بلغني أنك ابتعت داراً بثمانين ديناراً، وكتبت لها كتاباً، وأشهدت فيه شهوداً! فقال له شريح: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين. قال: فنظر إليه نظر المغضب ثم قال له: يا شريح! أما إنه سيأتيك من لا ينظر في كتابك، ولا يسألك عن بينتك حتى يخرجك منها شاخصاً، ويُسلمك إلى قبرك خالصاً. فانظر يا شريح! لا تكون ابتعت هذه الدار من غير مالك، أو نقدت الثمن من غير حلالك؛ فإذا أنت قد خسرت دار الدنيا ودار الآخرة. أما إنك لو كنت أتيتني عند شرائك ما اشتريت، لكتبت لك كتاباً على هذه النسخة، فلم ترغب في شراء هذه الدار بدرهم فما فوق. هذا ما اشترى عبد ذليل من ميت قد أزعج للرحيل، اشترى منه داراً من دار الغرور من جانب الفانين...).

• القانون المقترح:

والوصية بالإكثار من تعاقد القضاء تلتقي مع القانون المقترح الخاص بإنشاء «مجلس مخاصمة القضاء» والذي عُرض على مجلس الأمة بصور



مختلفة ابتداء من عام ٢٠٠٧ ولم يُقر، وما زال الأمر قيد التداول .
وينطلق المقترح من أن القاضي مهما كان نزيهاً ومحيطاً بالأحكام ومطلعاً
على ملف القضية، فإنه يبقى بشراً غيرَ معصوم عن الخطأ، وبما أن إقامة
العدل وإحقاق الحقوق هي الغاية من التخاصم عند القضاء، لذا فإن إقامة
مثل هذا المجلس سيكون أمراً متناقضاً مع الشرع، والعقل، والدستور.
هذا المقترح لا يمثل بدعة في مجاله، حيث لدى الكثير من الدول
المتقدمة والنامية مجالس مشابهة له.

والمقترح الذي قُدّم من قبل بعض السادة النواب يتضمن ١٦ اختصاصاً
لهذا المجلس من بينها:

- تلقي البلاغات والشكاوى والتظلمات ضد أعضاء السلطة القضائية
أو القرارات القضائية والتحقيق فيها.

• محاكمة أعضاء السلطة القضائية وإصدار العقوبات التأديبية والجزائية بحقهم.

• إلغاء القرارات القضائية والتعويض عنها.

وقد أكد السيد وزير العدل قبل أقل من سنة أن وزارته عاكفة على تجهيز توليفة تخص «قانون استقلالية القضاء ومخاصمة القضاء» لتعرض على مجلس الأمة، ومؤكداً أهمية المشروع وأنه حاجة ملحة.

• أساس الملك:

إننا نأمل أن يتم التعامل الجاد من قبل السادة نواب مجلس الأمة مع القانون المقترح بإنشاء مجلس مخاصمة القضاء متى ما طُرح، حرصاً على أهم أساس من أسس الحكم في أي بلد ينشد الاستقرار والقوة والتنمية والتماسك المجتمعي، وهو ما أكدته المادة السابعة من دستور دولة الكويت التي نصّت على أن: (العدل والحرية والمساواة دعائم المجتمع، والتعاون والتراحم صلة وثقى بين المواطنين) وفي المادة ١٦٢ منه أن: (شرف القضاء، ونزاهة القضاة وعدلهم، أساس الملك وضمان للحقوق والحريات)، وقد قال الله «عز اسمه»: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ «النساء: ٥٨». أيها الناس، إن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيق.

